

الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني - دراسة قرآنية -

الدكتور

محمد كاظم حسين الفتلاوي

كلية التربية / جامعة الكوفة

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب:..... الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني
المؤلف:..... الدكتور محمد كاظم حسين الفتلاوي
الطبعة:..... الأولى ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الإخراج الفني

محمد الخزرجي ٠٧٨٠٠١٨٠٤٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

كُلَّمَا تَقَطَّعْتَ بِي السَّبِيلَ، أَوْ اشْتَبَهْتَ عَلِيَّ الْأُمُورِ لَذْتُ بِالْخَالِقِ الْعَظِيمِ مَتَوَجِّهًا إِلَيْهِ مِنْ بَابِ عَلِيٍّ (عليه السلام)، فَحَسْبِي بِهِ مِنْ مَلَاذِي أَمْنٍ، وَأَنَا عِنْدَ بَابِكَ سَيِّدِي أَقْفُ كَمَا وَقَفَ إِخْوَةُ يُوسُفَ (عليه السلام) وَقَالُوا لَهُ:

﴿يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَحَةٍ فَأَوْفِ

لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ^ط إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ (١).
فَعُذْرًا أبا الحسن فالهدية بقدري لا بقدرك، فأقول كما قيل:

جاءت سليمان يوم العرض هدهة أهدت إليه جراداً كان في فيها
وانشدت - بلسان الحال - قائلة: إن الهدايا على مقدار مهديها
لو كان يهدى إلى الإنسان قيمته لكان يهدى لك الدنيا بما فيها

محمد

(١) سورة يوسف، الآية ٨٨.

المحتويات

الفصل الأول:

- رؤية عامة في العبادة ١١
المبحث الأول: مقتضيات العبادة في القرآن الكريم ١٤
المبحث الثاني: منزلة العبادة في القرآن الكريم ٢٩
المبحث الثالث: سماحة العبادة في القرآن الكريم ٣٢

الفصل الثاني:

- فريضة الصلاة وأثرها في بناء الإنسان ٥٠
المبحث الأول: رؤية عامة في الصلاة ٥٠
المبحث الثاني: آثار بناء الصلاة على الإنسان ٧٠

الفصل الثالث:

- فريضة الزكاة وأثرها في بناء الإنسان ٨١
المبحث الأول: رؤية عامة في الزكاة ٨٣
المبحث الثاني: موارد صرف الزكاة وثمارها ٩٠

الفصل الرابع:

- فريضة الصوم وأثرها في بناء الإنسان ١٠٩
المبحث الأول: رؤية عامة في الصيام ١١٢
المبحث الثاني: أثر فريضة الصوم في بناء الإنسان ١٢٢

الفصل الخامس:

- فريضة الحج وأثرها في بناء الإنسان ١٣٩
المبحث الأول: رؤية عامة في الحج ٤٣
المبحث الثاني: أثر فريضة الحج في بناء الإنسان ١٥٦

الخاتمة

- ١٧٣
قائمة المصادر ١٧٧

(٦) الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

أما بعد.. يُعد البناء العبادي الدعامة الأساسية في بناء الإنسان في القرآن الكريم، وهذا البناء إنما ترجمة عملية للبناء العقائدي، فالإنسان يعتقد أولاً ومن ثمة يؤدي الطقوس العبادية طبقاً لأوار معتقداته.

ولكي يظل غرس العقيدة الإسلامية قوياً في النفس، لابد من أن يسقى بماء العبادة وبمختلف صورها وأشكالها، فبذلك تنمو العقيدة في الفؤاد وتترعرع، وتثبت أمام عواصف الحياة وزعازعها.

ولهذا كان عنوان كتابنا (الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني)^(١) - دراسة قرآنية-)، وفي مضمون سعى صاحبه الى بيان أثر هذه الفرائض على الإنسان لما كانت العبادة تجسيد حقيقي للإيمان وتحتل مركز الصدارة في الكشف عن حقيقة إيمان الإنسان، فمن آمن بالله تعالى حقاً عليه أن يقترب إليه بطقوس عبادية تكشف عن عبوديته، وتعبّر عن شكره وحمده لخالقه، وخير كاشف عن مصداقية الإيمان هو

(١) إختار المؤلف مفردة البناء الإنساني من دون مفردة بناء الإنسان، لما يرى فيها من عمومية من حيث (الفرد والمجتمع).

(٨)..... الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

أداء الإنسان لما افترضه الله عليه من صلاة وزكاة وصيام وحج البيت الحرام وما إلى ذلك من فرائض عبادية.

وتكمن أهمية التربية العبادية أيضاً في إن الحضارة الإنسانية لم تكن ميراثاً يأخذه الخلف عن السلف من دون جهد أو عناء وإنما هي ميراث اجتماعي جاهد الجنس البشري في كتابته وحافظ عليه آلاف السنين، ولم ينتقل من جيل إلى جيل إلا بالتربية فهي التي نقلت الثروات الفكرية، والقيم الكريمة، والعادات الطيبة من الآباء إلى أبنائهم، يقول بعض المربين:

(إن السبب الذي من اجله يحتاج إلى التربية هو أن الأطفال لا يولدون بشراً بل يصيرون بشراً بفضل التربية..)^(١).

وبطبيعة الحال ليس كل تربية هي فاعلة في النفس البشرية، فكثير من التربيات هي أمراض نفسية وعامل هدم في نسيج المجتمع، وإنما التربية الناجعة هي تلك التي وضعها من ألهم النفس الإنسانية ومبتدعها - الله سبحانه - ومن ثم فإن (أسمى أنواع التربية وأكثرها عطاءً للإنسان هي التربية الدينية التي تهدف إلى النمو الروحي، والتهديب النفسي، وتنمية السلوك، وتعويد النفس على العادات الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والمثل الكريمة)^(٢)، وبهذا فإن البناء العبادي - كما تقدم - هو أسمى عامل تربوي في المنظومة الإسلامية.

(١) جورج شهلا وآخرون، الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٨م، ص٢٣.

(٢) باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام - دراسة مقارنة-، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، (دت)، ص٨.

وسيقنصر هذا الكتاب على تسليط الضوء على التربية الدينية من خلال الفرائض العبادية فقط، وعلى آثارها من دون التعرض إلى تفاصيلها الفقهية؛ لأن ذلك ليس من صلب بحثنا، وإن العبادات التي سيكون البحث فيها هي العبادات ذات الارتباط الأزمني بفواصل زمانية متفاوتة (الصلاة والزكاة والصيام والحج) من دون العبادات الأخرى التي تفرضها الظروف والحاجة الموضوعية في واقع الإنسان.

والسبب في هذا أن العبادات ذات الارتباط الأزمني المكلف بها الإنسان يحتاجها (في حركته التكاملية إلى الله عَزَّ وَجَلَّ... ولذلك فإن الله تعالى يفرضها على الناس في كل الظروف، مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج، وهي التي نقصدها من (الرواتب)، وهي العبادات التي يحتاجها الإنسان لتكامله النفسي، والروحي، والعقلي، بغض النظر عن أية ظروف موضوعية وفي كل الظروف، وهي على أقسام حسب حاجة الإنسان إليها)^(١).

ثم كان الكلام عن أثر هذه العبادة في بناء الإنسان، إذ (لكل عبادة من العبادات وكل منسك من المناسك الشرعية، فضلاً عن أنّ لها صورة أخروية وملكوته، بها تقم عمارة الجنة الجسمانية وقصورها، وتهيئة الغلمان والحوار طبقاً للبراهين والأحاديث)^(٢)

(١) محمد مهدي الأصفي، كيف نحافظ على مكاسب الحج؟، مجلة ميقات الحج، طهران، السنة ١٦، ذو الحجة، ١٤٣٠هـ، العدد ٣٢، ص ٩٩.

(٢) قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (قال رسول الله ﷺ): لما اسري بي إلى السماء دخلت الجنة فرأيت فيها ملائكة بينون لبنة من ذهب ولبنة من فضة وربما امسكوا فقلت لهم مالكم ربما بنيتم وربما أمسكتم فقالوا تجيئنا النفقة فقلت لهم وما نفقتهم؟ فقالوا: قول المؤمن في الدنيا سبحان الله، والحمد لله، ولا اله إلا الله، والله أكبر. فإذا قال بنينا وإذا امسك امسكنا، المجلسي، بحار الأنوار:

(١٠)..... الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

فان لكلّ عبادة من العبادات أيضاً أثراً يحصل في النفس، مما يقوي الإرادة شيئاً فشيئاً
ويصل بقدرتها إلى حد الكمال^(١) للإنسان.

فالفرائض العبادية خير ما يتقرب فيه العبد إلى خالقه، يقول الإمام علي^(عليه السلام):
(... لا عبادة كأداء الفرائض)^(٢). وعن الإمام جعفر الصادق^(عليه السلام) قال: (نزل جبرائيل
على النبي^(صلى الله عليه وآله)) فقال: يا محمد... ما تقرب إليّ عبدي المؤمن بمثل أداء الفرائض،
وإنه ليتنفل لي حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر
به، ويده التي يبطش بها...^(٣). كما إن التزام الإنسان بعبادة الله تعالى تحقق له
الراحة النفسية، والسعادة في الحياة الدنيا، قال الإمام علي^(عليه السلام): (دوام العبادة برهان
الظفر بالسعادة)^(٤)، كما يحقق البناء العبادي محبة الله^(صلى الله عليه وآله) في قلوب المتعبدين
فيشعرهم بقربهم منه ^ﷺ فينعموا ببركاته ورزقه، قال أمير المؤمنين علي^(عليه السلام): (إذا
أحب الله عبداً ألهمه حسن العبادة)^(٥)، ولكي نقف على أهمية هذا البناء العبادي
وآثاره على الإنسان، قسمنا هذا الكتاب إلى الفصول التالية:

(١) روح الله الخميني، الأربعون حديثاً: ١٦٢.

(٢) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ٢٧/٤، المجلسي، بحار الأنوار، ٤٠٩/٦٦.

(٣) الكليني، الكافي، ٣٥٢/٢، المجلسي، بحار الأنوار، ١٥٥/٧٢.

(٤) محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ١٣٠٥/٢.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ٢٦/١٠٠.

الفصل الأول

رؤية عامة في العبادة

(١٢) الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

قبل تناول مباحث هذا الفصل، نرى من الضرورة بمكان أن نعرج على مفهوم العبادة في اللغة والاصطلاح وعلى النحو التالي:

١. **العبادة في اللغة:** (هي من رق الرق بالكسر من الملك وهو العبودية. والرق بالكسر هو ما يكتب وهو جلد رقيق زنه أرق، وهو ضد أعتقه، والرقيق المملوك)^(١). وقال الراغب: (العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا مَنْ له غاية الأفضال وهو الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٢)^(٣)).

ويقول الفيروز آبادي: (العبدية والعبودية والعبودة والعبادة بمعنى الطاعة)^(٤)، (وأصل العبودية: الخضوع والذل والتعبيد التذلل يقال الطريق معبّد إي مذل، والتعبيد أيضاً: الاستعباد. وهو اتخاذ الشخص عبداً، ويقال تعبدته أي: اتخذته عبداً، والعبادة: الطاعة، والتعبيد: التنسك)^(٥).

إذن العبودية: هي التذلل والخضوع والانكسار والافتقار والطاعة لمن يعبده أو لما يتوجه إليه ويقصده كأن يكون رباً أو شخصاً أو صنماً أو هوى أو أي شيءٍ آخر.

(١) الرازي ، مختار الصحاح: ٢٥٣.

(٢) سورة الإسراء: ٢٣.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: ٥٤٢.

(٤) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ص ٥٧٩.

(٥) الرازي ،مختار الصحاح: ٤٠٨.

٢. **العبادة في الاصطلاح:** ليس للعبادة اصطلاح خاص بل بقيت في إطار معناها اللغوي فهي إذعان العبد والخضوع والتذلل لخالقه **عِزَّ** بغاية المحبة والتعظيم و(الخضوع له والتقرب إليه سبحانه والخلوص لوجهه الكريم)^(١).
فالعبادة في ظاهرها تذلل وخضوع وافتقار وانكسار، إلا أنها في الحقيقة عزة للإنسان وجمال لروحه ونور لقلبه، قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾^(٢).

المبحث الأول: مقتضيات العبادة في القرآن الكريم:

ليس العبادة مطلق التذلل والخضوع للرب **عَزَّ** كيفما أراد العبد، إنما لها مقتضيات وتوابع عملية شرعها الله **سُبْحَانَهُ** يجب التقيد بها. فكما أن أصل وجوب العبادة مشرّع منه تعالى، فإن تفاصيلها وصورها منصوصة شرعاً كذلك. ولعل أهم هذه المقتضيات هي:
١. **الالتزام بما شرع الله تعالى ورسوله (ﷺ) من الأوامر والنواهي والتحليل والتحریم؛** لأن ذلك كله من مقتضى الخضوع لله سبحانه والطاعة له ولرسوله (ﷺ)، لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾^(٣).
وقوله تعالى: ﴿ **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ**

(١) أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص ٥٠١، ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٥/١٨، وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) محمد بن أبي بكر الزرعي، الطب النبوي، دار بيروت، (دت): ٢١٣/١.

(٢) سورة المنافقون: ٨.

(٣) سورة الأنبياء: ٢٥.

يَسْتَنْكِفُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرُ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١﴾، والأنبياء (عليه السلام) عباد الله ورسله إلى خلقه، وعلى الناس الالتزام بما شرع عن طريقهم (عليه السلام) وعدم الامتناع (٢).
وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (٣)، يقول الآلوسي: (أي ألزموا طاعته فيما أمركم به ونهاكم عنه (وأطيعوا الرسول) المبعوث لتبليغ أحكامه إليكم في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه أيضاً،...، وأعاد الفعل - أطيعوا - وإن كانت طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله تعالى اعتناءً بشأنه (عليه السلام) وقطعاً لتوهم أنه لا يجب امتثال ما ليس في القرآن وإيداناً بأن له (عليه السلام) استقلالاً بالطاعة لم يثبت لغيره) (٤)، لكونه (عليه السلام) معصوماً، وبهذا تكون (إطاعته مطلقه غير مشروطة بشرط، ولا مقيدة بقيد، وهو الدليل على أن الرسول لا يأمر بشيء، ولا ينهى عن شيء يخالف حكم الله في الواقعة، وإلا كان فرض طاعته تناقضاً منه تعالى وتقدس ولا يتم ذلك إلا بعصمة فيه (عليه السلام)) (٥)، ومن ثم تنسحب هذه الطاعة إلى كل معصوم، وأما أولو الأمر في الطاعة فحكم الرسول (عليه السلام) على ما تدل عليه الآية وعدم التقييد في هذه الطاعة دليل على وجود العصمة فيهم.

يقول السيد محمد حسين الطباطبائي: (إن المراد بأولي الأمر في الآية رجال من الأمة حكم الواحد منهم في العصمة وافتراض الطاعة حكم الرسول (عليه السلام)، وهذا مع ذلك لا ينافي عموم مفهوم لفظ أولي الأمر بحسب اللغة، وإرادته من اللفظ، فإن قصد

(١) سورة النساء: ١٧٢.

(٢) ظ: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٣/٣٨٣.

(٣) سورة النساء: ٥٩.

(٤) روح المعاني: ٨٦/٥.

(٥) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٤/٣٤٠.

مفهوم من المفاهيم من اللفظ شيء وإرادة المصدق الذي ينطق عليه المفهوم شيء آخر وذلك كما أنّ مفهوم الرسول معنى عام كلي وهو المراد من اللفظ في الآية، ولكن المصدق المقصود هو الرسول محمد (ﷺ) (١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣) (٢)، وذهب ابن عاشور إلى أنّ طاعة الرسول (ﷺ) هنا متمثلة فقط في أحكام الدين وما يبلغ به من الله تعالى، وأمّا غيره مما لا يدخل في أمر التشريع فطاعته غير ملزمة (ﷺ)، فيقول: (طاعة الرسول (ﷺ) التي أمروا بها هي امتثال ما أمر به ونهى من أحكام الدين، وأمّا ما ليس داخلاً تحت التشريع فطاعة أمر الرسول (ﷺ) فيه طاعة انتصاح (أدب) (٣).

ويرى الباحث أنّ طاعة الرسول (ﷺ) واجبة في كل الموارد بلا فرق، فهو (ﷺ) ما دام لا ينطق إلا بالوحي كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٤) (٤). وهذا إطلاق على أنّ كل ما يتكلم به النبي (ﷺ) هو من عند الله سبحانه، فالآية مطلقة في دلالتها.

يقول السيد الطباطبائي: إن الآية (تدل على إيجاب طاعة الله سبحانه فيما نزل من الكتاب وشرع من الحكم، وإيجاب طاعة الرسول فيما بلغ عن الله سبحانه، وفيما

(١) المصدر نفسه: ٣٥١/٤.

(٢) سورة محمد: ٣٣.

(٣) التحرير والتنوير: ١٠٧/٢٦.

(٤) سورة النجم: ٣ ، ٤ .

يصدر من الأمر من حيث ولايته على المؤمنين في المجتمع الديني، أو على تحذير المؤمنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم^(١).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ ﴾^(٢)، إن هذا الجزء من الآية وإن كان قد نزل بشأن بني النضير إلا أن

محتواها حكم عام في كل المجالات، ودليل واضح على حجية سنة الرسول (ﷺ)،

وهذه قاعدة مهمة في الدستور الإسلامي، يقول سيد قطب: (فلسطان القانون في

الإسلام مستمد من هذا التشريع الذي جاء به الرسول (ﷺ) قرآناً أو سنة، والأمة كلها

والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول، فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن

لتشريعها هذا السلطان، لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان، وهذه النظرية

تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر

السلطان، بمعنى إن للأمة أن تشرّع لنفسها ما تشاء، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان،

فمصدر السلطان في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول (ﷺ) والأمة التي

تقوم على هذه الشريعة، وتحرسها وتنفذها، والإمام نائب عن الأمة في هذا، وفي هذا

تتحصر حقوق الأمة، فليس لها أن تخالف عما أتاه الرسول في أي تشريع^(٣).

ونهاية الآية تحذير شديد لمن رام مخالفة أوامر الرسول (ﷺ)، فالأمة ملزمة بإتباع

التعاليم المحمدية وهي بطبيعتها طاعة لله تعالى في جميع المجالات العبادية أو

مسائل الحكومة الإسلامية.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣١٥/١٨.

(٢) سورة الحشر: ٧.

(٣) في ظلال القرآن: ٣٥٢٥/٦.

٢. حب الله تعالى ورسوله (ﷺ) وآله (عليه السلام): تتضمن العبادة لله إلى جانب الخضوع له سبحانه والذل لعظمته الحب له وعِزَّ ورسوله (ﷺ) وآله الكرام (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١).

يقول السيد الطباطبائي: (الحب الذي هو بحسب الحقيقة الوسيلة الوحيدة لارتباط كل طالب بمطلوبه وكل مرید بمراده، إنّما يجذب المحب إلى محبوبه ليجده ويتم بالمحبوب ما للمحب من النقص، ولا بشرى للمحب أعظم من أن يبشر أن محبوبه يحبه وعند ذلك يتلاقى حبان ويتعكس دلالان) (٢).

وفي هذا الربط الوثيق بين الإيمان والحب، قال النبي (ﷺ): (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله، والناس أجمعين) (٣). وفي هذا المضمون حديث آخر أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قال للرسول (ﷺ): (يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي)، فقال النبي (ﷺ): (لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك) (٤)... وفي تأكيد آخر على أن مقتضيات العبادة حب الله تعالى ورسوله (ﷺ) وآله الكرام، يقول الحبيب محمد (ﷺ): (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهلي أحب إليه من أهله، وعترتي أحب إليه من عترته، وذريتي أحب إليه من ذريته) (٥).

(١) سورة آل عمران: ٣١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٣٩/٣.

(٣) مسلم. صحيح مسلم: ٦٧/١.

(٤) البخاري، صحيح البخاري: ٢٤٤٥/٦.

(٥) المتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ)، كنز العمال: ٤١/١، والمجلسي، بحار الأنوار: ١٤/١٧.

وكذلك نلاحظ حب النبي وآله في حديث النبي (ﷺ) المروي عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، أنه قال: (إني شافع يوم القيامة لأربعة أصناف ولو جاؤوا بذنوب الدنيا، رجل نصر ذريتي، ورجل بذل ماله لذريتي عند المضيق، ورجل أحب ذريتي باللسان وبالقلب، ورجل يسعى في حوائج ذريتي إذا طردوا أو شردوا)^(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٢). وقد ذكر الطبري وجوهاً لتفسير هذه الآية نختار منه ما رواه عن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) عندما جاء به (أسيراً، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام، فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم، وقطع قربي الفتنة، فقال له علي بن الحسين (عليه السلام): أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم، قال ما قرأت ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؟ قال: وأنكم لأنتم هم؟ قال: نعم)^(٣).

ويقول البغوي (ت ٥١٠ هـ) وهو في معرض الدفاع عن الآية والرد على القائلين بأنها منسوخة: (وهذا قول غير مرضي، لان مودة النبي (ﷺ)، وكف الأذى عنه، ومودة أقاربه، والتقرب إلى الله بالطاعة، والعمل الصالح من فرائض الدين)^(٤).

(١) الكليني ، الكافي: ٦٠/٤.

(٢) سورة الشورى: ٢٣.

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ٣٢/٢٥ ، وعلى ما جرى لآل النبي (ﷺ) في كربلاء، يقول الآلوسي: (ولله تعالى در السيد عمر الهيتي أحد الأقارب المعاصرين حيث يقول:

بأية آية يأتي يزيد غداة صحائف الأعمال تتلى
وقام رسول رب العرش يتلو وقد صمت جميع الخلق (قل لا)،

روح المعاني: ٤٥/٢٥.

(٤) معالم التنزيل في التفسير والتأويل، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢م، ٤٩/٥.

ويقول الألووسي في تفسير الآية: (والخطاب على هذا القول لجميع الأمة لا للأنصار فقط، وإن ورد ما يوهم ذلك فإنهم كلهم مكلفون بمودة أهل البيت)^(١)، ويضيف: (وكلما كانت جهة القرابة أقوى كان طلب المودة أشد، فمودة العلويين الفاطميين ألزم من محبة العباسيين على القول بعموم القربى، وهي على القول بالخصوص قد تتفاوت أيضاً باعتبار تفاوت الجهات والاعتبارات وأثار تلك المودة التعظيم والاحترام والقيام بأداء الحقوق أتم القيام، وقد تهاون كثير من الناس بذلك حتى عدوا من الرفض السلوك في هاتيك المسالك، وأنا أقول قول الشافعي:

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي)^(٢).

وفي بيان تنمة الآية ﴿وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يقول الألووسي: (وحب آل الرسول (ﷺ) من أعظم الحسنات، وتدخل في الحسنة هنا دخولاً أولياً، (نزد له فيها)، أي في الحسنة (حسناً) بمضاعفة الثواب عليها فإنها يزداد بها حسن الحسنة)^(٣).

وقد أورد جملة من المفسرين حديث النبي (ﷺ) في تأكيده على حب آل، وأوردوه إيراد المسلمات، وهو قوله (ﷺ): (من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يُزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على

(١) روح المعاني: ٤٥/٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ٤٧ / ٢٥.

(٣) روح المعاني: ٤٧/٢٥.

حب آل محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة^(١).

فالآية إنما تشدد على مودة آل محمد (ﷺ) وهي - هذه المودة - أجر رسالة النبي (ﷺ) بأمر القرآن الكريم، فنفع هذه المودة موصل إلى عبادة الله تعالى، وذلك لأنها (استمرار خط رسالة النبي الكريم بواسطة القادة الإلهيين وخلفاء المعصومين الذين كانوا جميعهم من عائلته، ولكن لأن المودة هي أساس هذا الارتباط نرى أنّ الآية أشارت بصراحة إلى ذلك)^(٢).

ولهذا تستلزم هذه المحبة موافقة الله تعالى والرسول (ﷺ) فيما أحباه، وفيما أبغضاه، ولا تتحقق العبودية إلا بذلك لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٣).

(١) ظ: الزمخشري ، الكشاف: ٢٢٥/٤، والرازي، مفاتيح الغيب: ١٤٣/٢٧، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٤٣٥/٨.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي ، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٧٤/٢٥.

(٣) سورة التوبة: ٢٤.

٣. إنَّ العبادة ترجع فائدتها للعابد من المكلفين؛ لأنَّ الله تعالى غني عن العالمين لا تتفعه طاعة، ولا يضره إعراض المعرضين. وقد جاءت العبادات معلَّلة بذلك، مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١) فهو سبحانه لم يأمرهم بالعبادة لاحتياجه إليها، بل أنَّ منفعة العبادة عائد إلى الإنسان^(٢). يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر: (إنَّ كل عمل من أجل الله فإنَّما هو من أجل عباد الله؛ لأنَّ الله هو الغني عن عباده، ولَمَّا كان له الحق المطلق فوق أي حد، وتخصيص لا قرابة له لفئة ولا تحيز له إلى جهة، كان سبيله دائماً يعادل من الوجهة العملية سبيل الإنسانية جمعاء، فالعمل في سبيل الله، ومن أجل الله هو العمل من أجل الناس ولخير الناس جميعاً، وتدريب نفسي وروحي مستمر على ذلك)^(٣).

وقال تعالى على لسان نبيه سليمان (عليه السلام): ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾^(٤)، فهذه النعم التي ينعم بها الله تعالى على الإنسان هي ابتلاء في تحديد موقفه من الله تعالى، فإن شكر الإنسان هذه النعم كان مردود هذا الشكر إلى الإنسان، وإن عصى وجحد النعم فهذا مردود عليه أيضاً، وإن كان من الناس من يحسب أنَّ عبادة الشكر عبارة عن لقلقة لسان أو لوحة يخط عليها (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي) وما شابه ذلك، بل هي عبادة واسعة لجميع جوارح الإنسان في

(١) سورة آل عمران: ٩٧.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ٢٦٥/٢.

(٣) نظرة عامة في العبادات، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٣، ١٩٨١م: ٣٩.

(٤) سورة النمل: ٤٠.

هذه الحياة، يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: (وبالرغم من أنه أعتيد كتابة هذه العبارة المهمة (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي) من قبل المتظاهرين بالشكر على أبواب قصورهم (الطاغوتية) دون أن يعتقدوا بذلك أو يكون أدنى أثر من هذه العبارة في عملهم... إلا أنّ المهم هو أن تكتب على الباب وعلى جبين حياة الإنسان وفي قلبه... أيضاً، وأن يكشف عمله أن كل ذلك من فضل الله... وأن شكره عليه، لا شكراً باللسان فحسب، بل شكراً مقروناً بالعمل وفي جميع وجوده)^(١).

فالعبادة عموماً متعلقة في أداؤها بالإنسان، وهي من قبيل ما نلاحظه في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَمْهَدُونَ﴾^(٢)، فنفع هذه العبادة للإنسان ووبال تركها عليه أيضاً، (ولا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يعذب إلا بعد قيام الحجة عليه)^(٣)، فيما وضح من أساليب العبادة وطرقها.

٤. أن تكون العبادة عن إرادة ونية: الدنيا التي نعيش فيها وهذا الكون الرحب، كل ما فيه يُسبح بحمد الله تعالى ويخضع له، فالأرض والسماء وما فيها كل مستسلم لله تعالى خاضع له، حيث هو المبدع الواحد، فالعبادة غاية الوجود، قال تعالى:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾^(٤)، فكل الموجودات خاضعة لله عز وجل بمشيئتها أو بغيرها فهي جميعاً تحت سلطانه، وفي قبضته سبحانه، ولكن الإنسان لا يثاب على عبادته إلا إذا كانت

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥٧/١٢.

(٢) سورة الروم: ٤٤.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم: ١٠٠/٤، وظ: الألوسي، روح المعاني: ٥٢٣/٢٤.

(٤) سورة آل عمران: ٨٣.

مقرونة بإرادة وقصد، يقول القاسمي: (فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم له كرهاً، فإنّه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع)^(١).

وبما أنّ العباداة في القرآن المجيد لها معنى واسع في الدين لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢). فلا بد من تفاعل الإنسان مع هذه العباداة كاملاً نية وقولاً وعملاً.

فالواجب على كل إنسان مسلم أن يعلم أنّه ما خُلق إلاّ للعبادة، وأنّ وقته يجب أن يكون في عبادة، سواء ما كان في الشعائر التعبدية أو ما كان منه في المعاملات أو في سائر سلوكياته وأفعاله، لأنّ (السبيل الصحيح الوحيد هو أن تتحول كل الفعاليات الحياتية المختلفة في ظل القصد والنية إلى عبادة، وتمنح وجهة تكاملية، لكي لا تذهب أي طاقة من طاقات الإنسان هدرًا)^(٣)، وتكون بعيدة بذلك عن القرب إلى الله تعالى.

قال الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام): (لا عمل إلاّ بالنية)^(٤)، فلا يمكن أن تُقبل الأعمال ويثاب عليها الإنسان إلاّ إذا كان قاصداً بهذا العمل القربة إلى الله تعالى، بل إنّ النية تكون أفضل من ذات العمل العبادي، وهذا ما نلحظه في قول

(١) محاسن التأويل: ٧١٥/٢.

(٢) سورة البقرة: ٢١.

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي، العودة إلى الذات وبنائها من جديد، ترجمة: محمد علي تسخير، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، المعاونة الثقافية، إيران، ٢٠٠٩م: ص ٨٩.

(٤) المجلسي: بحار الأنوار: ٣٧/ ٨١.

النبي (ﷺ): (نية العبد خير من عمله)^(١)، ولعل سبب هذه الخيرية في النية هو كون النية سالمة من الرياء والشوائب الأخرى على فرض تحقق العمل، وأمّا عند عدم تحقق العمل العبادي فإنّ الله سبحانه يثيب الإنسان على نيته بمقدار ذلك العمل العبادي الذي لم يقم به، لأنّ المتقي ربما لا يتوفّق لأداء بعض الأعمال العبادية لظروف تحيط به، إمّا زمانية أو اجتماعية أو لتدخل الأعمال وما شاكل، فهنا يأتي دور النية الصالحة لتقوم مقام العمل، وليفوز الإنسان المتقي بثواب ما حُرّم من أذائه، قال الإمام علي (عليه السلام): (إنّ الله سبحانه يدخل بصدق النية والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنة)^(٢)، وقال (عليه السلام) أيضاً: (من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حق ربه وعجل، وحق رسوله وأهل بيته، مات شهيداً ووقع أجره على الله، واستوجب ما نوى من صالح عمله، وقامت النية مقام أصلاته لسيفه)^(٣).

إذن النية تجعل من الأعمال المباحة أعمالاً عبادية يثاب عليها الإنسان إذا قصد من وراء هذا العمل القرب من الله تعالى وعبادته سبحانه، وكذلك تجعل النية العمل العبادي المنصوص عملاً يعاقب عليه الإنسان من الله تعالى ويبطله، لما شاب هذا العمل من رياء أو نفاق وما شاكل ذلك.

٥. العبادة غاية وشمول: أن تكون عبادة الإنسان لله تعالى (في مقام الذلة والعبودية وتوجيه وجهه إلى مقام ربه)^(٤)، ويكون خاضعاً لطاعته وطريقاً إلى العبادة بمعناها الشامل.

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٦٧: ٢١٠.

(٢) نهج البلاغة: ١٢/٤.

(٣) المصدر نفسه: ١٣٣/٢.

(٤) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٥/١٨.

وهذا الشمول والخضوع لعظمة الله تعالى واستشعار إحاطته وقدرته لا يتحقق إلا في العبادة؛ لأن (العبادة نوع من الخضوع بالغ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب بعظمة المعبود مع الحب النفسي والفناء في جلال المعبود وجماله فناء لا يدانيه فناء مع الاعتقاد بسلطته له لا يُدرك كنهها وماهيتها، وقصارى ما يعرف عنها أنها محيطه به ولكنها فوق إدراكه، فهو لذلك يخضع للمعبود رهبة مما يقدر عليه من العقاب، وطمعاً فيما عنده من الخير، رغبة في كشف الضر عنه وحباً فيما أنعم عليه من إحسان)^(١). لذلك لا بد من شمول العبادة لكل مناحي الحياة المختلفة حتى تتحقق العبودية الكاملة لله تعالى، يقول فتحي يكن(ت ١٤٣١ هـ): (العبادة في الإسلام هي نهاية الخضوع وقمة الشعور بعظمة المعبود وهي مدارج الصلة بين المخلوق والخالق، كما أنها ذات آثار عميقة في التعامل مع خلق الله وتستوي في ذلك أركان الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج وسائر الأعمال التي يبتغي بها الإنسان وجه الله ويتحرى شرعه ومنطق الإسلام يقتضي أن تكون الحياة كلها عبادة وكلها طاعة)^(٢).

فجميع نواحي الإنسان في هذه الحياة الغاية منها العبادة، وفي هذه الشمولية للعبادة وتنوعها والمقصد من ورائه، يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر: (هذا الشمول في العبادة يعبر عن اتجاه عام في التربية الإسلامية يستهدف أن يربط الإنسان في كل أعماله ونشاطاته بالله تعالى، ويحول كل ما يقوم به من جهد صالح إلى عبادة مهما كان حقله ونوعه، ومن أجل إيجاد الأساس الثابت لهذا الاتجاه وزعت العبادات الثابتة على الحقول المختلفة للنشاط الإنساني، تمهيداً إلى تمرين الإنسان

(١) عفيف طبارة، روح الصلاة في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٧، ظ: سعيد حوى، الإسلام، ص ٥٧.

(٢) ماذا يعني انتمائي للإسلام، مؤسسة الرسالة، القاهرة، ط ٢٤٤، ٢٠٠٠م، ص ١٧.

على أن يسبغ روح العبادة على كل نشاطاته الصالحة، وروح المسجد على مكان عمله في المزرع أو المصنع أو المتجر أو المكتب، ما دام يعمل عملاً صالحاً من أجل الله سبحانه وتعالى^(١).

وهذا الشمول في العبادة يعم جميع نواحي الحياة، وإنها ليست محصورة فقط في الشعائر التعبدية المعروفة، فكل عمل يقوم به الإنسان اتجاه أخيه الإنسان هو ضمن غاية الخلق والوجود في هذه الحياة، وهذا ما نلاحظه في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢). يقول الرازي في هذه العبادة: (التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهما)^(٣). قال ابن عاشور: (فهي بهذا التفسير تشمل الامتثال لأحكام الشريعة كلها)^(٤).

فالعبادة لا تنحصر بالشعائر التعبدية فحسب، بل إن مجال العبادة واسع يشمل جميع حركات الإنسان وسكناته، فليس الامتثال بالمأمور عبادة فقط، بل اجتناب ما نهى عنه الله تعالى عبادة أيضاً، فهي - العبادة - هيمنة كبرى (على الشعور والسلوك في منهج كامل للحياة، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الإلوهية وحقيقة العبودية

(١) نظرة عامة في العبادات، ص ٥٧، وظ: القاسمي، محاسن التأويل: ٢١٥/١، د. وضحه السويدي، تنمية القيم الخاصة بمادة التربية الإسلامية لدى تلميذات المرحلة الإعدادية بدولة قطر (أصله أطروحة دكتوراه)، دار الثقافة، دولة قطر، ١٩٨٩م، ص ٧٨.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

(٣) مفاتيح الغيب: ٢٨/٢٠٠.

(٤) التحرير والتتوير: ١٨٠/١، وظ: سيد قطب، في ظلال القرآن: ١٩٤٣/٤.

ولحقيقة الصلة بين الخالق والمخلوق^(١)، وبهذه المقترضات اللازمة في بناء العبادة، وهي تبدو للباحث بمثابة شروط مشتركة لجميع العبادات - لم نرد مما ذكر من المقترضات الحصر والاستقصاء^(٢)، فبتحقق هذه المقترضات تتحقق غاية الوجود من الإنسان اتجاه خالقه من خلال العبادة الخالصة وعلى أساس محبة الله واستشعار فضله ونعمته وإحسانه ورحمته، فانه تعالى خلق الإنسان ووهبه العقل وعلمه البيان وارتضاه لخير دين وسخر له ما في السماوات والأرض جميعاً، وكرمه وفضله على كثير من خلقه، ورزقه من الطيبات واستخلفه في الأرض بعد أن خلقه من طين ثم من ماء مهين ثم نفخ فيه من روحه فكرمه وأسجد له ملائكته.

(١) حسن القبانجي، شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين (عليه السلام)، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ٢٠٠٢م، ١/١٤، ط: محمد قطب: مفاهيم ينبغي أن تصحح، دار الشروق، القاهرة، ط ٨، ص ١٧٣.

(٢) يرى ابن عاشور أنّ (الخوف والرجاء) من مقترضات العبادة كالحب، وقد ساق في ذلك أدلة، ط: التحرير والتتوير: ١/١٨٠، وكذلك نلاحظ هذا المعنى في غريب ما ذهب إليه ابن تيمية الحراني (٧٢٨هـ) في قوله: (من عبد الله بالحُب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري)، العبودية، مطبعة المدينة، مصر، ١٩٥٨م، ص ٦٢. ولا يبدو للباحث أنّ (الخوف والرجاء) من مقترضات العبادة لله تعالى، ولو في هذا المقام، إذ لا يُعبد الله تعالى بهذين الأمرين، فهذا يخالف المقترضى الأول الخلوص - الإخلاص - في العبادة لوجهه سبحانه، فلا يُعتقد أن يتقرب إلى الله تعالى بنية الخوف والرجاء، بأن يقول أصلي الفرض كذا خوفاً من الله، بل بالقرب والحُب إليه سبحانه، وإلى هذا المعنى المختار ذهب الرازي، ط: مفاتيح الغيب: ٢٠٢/١، والطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن: ١/٢٦، والعلامة الحلي (ت ٧٢٦هـ)، كتاب الألفين، مكتبة الألفين، الكويت، ١٩٨٥م، ص ١٣٨.

المبحث الثاني: منزلة العبادة في القرآن الكريم:

العبادة هي الغاية المحبوبة والمرضية لله تعالى التي خلق الخلق من أجلها كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١)، وبها أرسل الرسل جميعاً، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۚ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۗ ﴾^(٣)، وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت كما قال تعالى: ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾^(٤)، فهذا أمر بانتهاج منهج التسليم والطاعة والقيام بلوازم العبودية والصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى مُرٍّ ما يقولون حتى يدركك الموت وينزل عليك عالم اليقين^(٥)، ويقول الألوسي: (والمعنى دُم على العبادة ما دمت حياً من غير إخلال بها لحظة)^(٦). وبالعبادة وصف الله وعِزَّ ملائكته، فقال تعالى: ﴿ وَكَهْمَنٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾^(٧). فهؤلاء الملائكة وكل من عند الله تعالى

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة الأعراف: ٥٩.

(٣) سورة النحل: ٣٦.

(٤) سورة الحجر: ٩٩.

(٥) ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١٢/١٦٦.

(٦) روح المعاني: ٤/٤٤٢، وقد عالج المفسران (الألوسي والطباطبائي) ما ذهب إليه الملحدون فيما يسمونه بالكشف والشهود والحاصل عند اليقين والذي يسقط التكليف، وهو غريب في تفسير هؤلاء الملحدون لليقين، في كونه نهاية العبادة، وليس نهاية الدنيا!.

(٧) سورة الأنبياء: ١٩ - ٢٠.

لا يفترون عن عبادته سبحانه بخلاف بعض بني البشر ممن عصى الله تعالى، فيعرض القرآن المجيد (لهم نموذجاً من نماذج الطاعة في مقابل عصيانهم وإعراضهم، نموذجاً ممن هم أقرب منهم إلى الله، ومع هذا فهم دائبون على طاعته وعبادته، لا يفترون ولا يقصرون)^(١).

وقد نعت الله صفوة خلقه بالعبودية، فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾^(٢)، يقول الرازي: (واعلم أنه سبحانه خص اسم العبودية بالمشغلين بالعبودية، فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات)^(٣).

ومن شرف العبودية أن المسيح (ﷺ) أول من نطق ووصف نفسه بها قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾^(٤). ولشرف هذا الانتساب لعيسى (ﷺ) صار (سبباً لطهارة أمه، ولبراءة وجوده عن الطعن، وصار مفتاحاً لكل الخيرات، ودافعاً لكل الآفات، وأيضاً لما كان أول كلام عيسى ذكر العبودية كانت عاقبته الرفعة، كما قال تعالى: ﴿وَرَأَيْكَ إِلَىٰ﴾^(٥)، والنكته أن الذي ادعى العبودية بالقول رفع إلى الجنة، والذي يدعيها بالعمل سبعين سنة كيف يبقى محروماً عن الجنة)^(٦).

وفي مكان العبودية وشرفها أن الله تعالى نعت الحبيب محمد (ﷺ) بالعبودية في أكمل أحواله في أعلى مقامات المعراج، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن: ٢٣٧٢/٤ ، ظ: الطبرسي ، مجمع البيان: ٥٤/٧.

(٢) سورة الفرقان: ٦٣.

(٣) مفاتيح الغيب: ٩٣/٢٤.

(٤) سورة مريم: ٣٠.

(٥) سورة آل عمران: ٥٥.

(٦) الرازي ، مفاتيح الغيب: ٢٠٣/١ ، وظ: الألوسي ، روح المعاني: ٥٤١/١٦.

﴿يَتَلَا﴾^(١)، وهذا أشرف ما ينسب إليه إنسان، وهي أرقى ما يصل إليه من السموات والدرجات السامية في حضرة رب الأرباب، فكان لهذه الآية الكريمة مدح وتشريف له (عليه السلام)، يقول الرازي: (لما وصل محمد (عليه السلام) إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في هذا المعراج أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم أشرفك؟ قال: (يارب بأن تتسبني إلى نفسك بالعبودية) فأنزل الله فيه (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ يَلْتَمِسُ) (٢). (ولولا أن العبودية أشرف المقامات، وإلا لما وصفه الله بهذه الصفة في أعلى مقامات المعارج)^(٣).

بل إن المنظور القرآني ينص على أن صفة العبودية عامة لجميع الخلق كما تقدم، لذا كان جميع بني الإنسان متشرفين بهذه الصفة، والإنسان هو الذي يحافظ على هذا التشريف وسمته أولاً، وهذا ما نلاحظه لما قال الشيطان فيما حكى الله تعالى عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُكَ وَأَخَوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُخَوِّتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(٤)، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾^(٥). فسبحانه وتعالى نعت بلفظ

(١) سورة الإسراء: ١.

(٢) مفاتيح الغيب: ١١٧/٢٠، وقريب من هذا المعنى: أن النبي (عليه السلام) لما خير بين أن يكون عبداً نبياً أو ملكاً نبياً، قال (عليه السلام): (بل أكون عبداً نبياً)، ظ: النسائي (ت٣٠٣هـ)، سنن النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٧١/٤، والطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ١٨/١٥.

(٣) مفاتيح الغيب: ٢٠٢/١.

(٤) سورة الحجر: ٣٩.

(٥) السورة نفسها: ٤٢.

(عبادي عامة الإنسان، وإن الاستثناء في قوله: (مَنْ أَتَّبَعَكَ) متصل لا منقطع^(١))، فليس لإبليس سلطان على عبيد الله تعالى سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين، بل من اتبع باختياره صار متبعاً له.

فإطلاق لفظ العبودية مضافاً إليه **وَعِزّاً** ومنسوباً لذاته المقدسة مما يفخر به الإنسان الصالح العارف معنى هذا النعت، وتميزه بالعزة لهذا الانتساب وشرفه، وهو ما يوضحه الإمام علي (عليه السلام) في مناجاته مع الله تعالى، إذ يقول: (كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً، وكفى بي شرفاً أن تكون لي رباً، اللهم إني وجدتك إلهاً كما أردت فاجعني عبداً كما أردت)^(٢)، فهذا الانتساب يوضح مكانة العبادة في الدين الإسلامي، وإثها يتشرف بها الإنسان كما تبين ذلك.

المبحث الثالث: ساحة العبادة في المنظور القرآني:

إنّ أجل الأعمال التعبدية التي يقوم بها الإنسان هو العمل على تحكيم شرع الله في الأرض، بحيث يحكم حياة الفرد والمجتمع والدولة. ومن هذه الرؤية الرائدة والتصور الواعي لحقيقة العبادة في الإسلام، لا يستطيع المسلم إلا أن يكون صاحب رسالة في هذه الحياة، وهذه الرسالة تتضمن في أن يكون الحكم لله وحده في جميع شؤون الحياة.

(١) محمد حسين الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن: ١٤٣/١٢ ، وظ: الزمخشري ، الكشاف: ٥٤٢/٢.

(٢) نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد: ٢٥٥/٢٠، وبلفظ (إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، أنت كما أحب فاجعني كما تحب). المجلسي ، بحار الأنوار: ٧٤ / ٤٠٠.

إلا أنّه من الضروري أن يبتعد الفرد عن التطرف والتعصب، فالإسلام لا يأخذ بأموره على نحو التحجر والانغلاق، بل يعطي الأمور نسبة تتوازن وظروفه^(١).

يقول الإمام محمد الباقر (عليه السلام): (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تُكْرَهُوا عبادة الله إلى عباد الله فتكونوا كالراكب المنبتّ الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى)^(٢). ويفهم من الحديث الشريف أنّ العبادة ليست مما يأتي بها الإنسان جملة واحدة من غير تدرج، وأنّ لكل إنسان قدراً من التفاعل بالعبادة، فلا يمكن حمله على الازدياد إلا بقدر ما يعي ذلك الإنسان من مفهوم العبادة وأهدافها في الوصول من القرب الإلهي.

وبطبيعة الحال ليس المراد من السماح عدم الحرج في التشريع الإسلامي أن يعني انتفاء أصل المشقة، لأن المشقة نوعان:

النوع الأول: مشقة معتادة لا تعتبر في العرف مشقة، فهذه ليست مقصود الشارع رفعها عن المكلفين؛ لأن أي عمل لا يخلو من مشقة، إذ لا مانع من وقوعها في التكاليف الشرعية، ولا يتحقق التكليف إلا بما فيه كلفة، وهي وسيلة لأداء العبادة، إذ ليست المشقة مقصودة لذاتها.

النوع الثاني: مشقة زائدة تضيق بها الصدور وتحتاج إلى جهود كبيرة قد تؤثر على صحة الإنسان، وعلى ماله وطريقة حياته، فينقطع عن كثير من الأعمال التي تنفع الفرد والمجتمع، وهذا النوع هو الذي أراد القرآن المجيد رفعه عن الإنسان تيسيراً له

(١) ظ: حسين على المصطفى، فلسفة العبادة، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ١٠٨.

(٢) الكليني، الكافي: ٨٧/٢.

وتسهيلاً عليه، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^(١). وهذه الآية الكريمة وإن كانت تدور حول موضوع الصيام، (لكن أسلوبها العام يجعلها قاعدة تشمل كل الأحكام الإسلامية، ويصير منها سنداً لقاعدة (لا حرج) المعروفة، هذه القاعدة تقول: لا تقوم قوانين على المشقة، وإن أدى حكم إسلامي إلى حرج ومشقة، فإنه يرفع مؤقتاً، ولذلك أجاز الفقهاء التيمم لمن يشق عليه الوضوء والصلاة جلوساً لمن يشق عليه الوقوف)^(٢).

وكذلك نلاحظ رفع الحرج في قوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٣)، يقول السيد الطباطبائي: (امتنان منه تعالى على المؤمنين بأنهم ما كانوا لينالوا سعادة الدين من عند أنفسهم وبحولهم غير أن الله منّ عليهم إذ وفقهم فاجتباهم وجمعهم للدين، ورفع عنهم كل حرج في الدين امتناناً، سواء كان حرجاً في أصل الحكم أو حرجاً طارئاً عليه اتفاقاً، فهي شريعة سهلة سمحة)^(٤).

ولهذا الامتنان على الإنسان من رفع الحرج وغيره في العبادات دعوة إلى العبادة بنفس الوقت وعدم قطع الصلة العبادية، مهما كان الظرف الذي يكون فيه الإنسان، فعليه أداء العبادة بقدر حاله وفهمه إياها (وليس للعبد أن ينقطع عن مولاه في حال، ولا للإنسان الضعيف أن ينقطع عن ناصره)^(٥).

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٧٢/١.

(٣) سورة الحج: ٧٨. وبنفس المعنى، تنظر: سورة النساء: ٢٨.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ٣٥٤/١٤.

(٥) نفس المصدر.

والتشريع الإسلامي حينما وقف بالتكليف عند حدود طاقة العباد إثمًا راعى صالحهم فلم يتجاوز بهم إلى العنت، كي لا تتراكم آثار المشقة على النفس فتقعدها عن أداء ما كلفت به، ومن ثم تورثها البغض للتكليف.

ونلمس السماحة في العبادة في مجال التدرج فيها وذلك لما كانت النفوس البشرية قد فطرت على معرفة الحق وقبوله غالباً، ولما كان انحرافها عن هذه المعرفة وعن هذا القبول هو من العوامل الخارجة عنها تغشاها وتطراً عليها، كان لا بد من تهيئة لهذه النفوس أولاً، حتى يتسنى لها دفع الركام والنهوض من بين أنقاض عوامل الفساد ومعاول الهدم التي تراكمت عليها طويلاً، وهذه التهيئة للنفس البشرية رعاها القرآن الكريم، إذ جاء الإسلام والناس في إباحة واسعة، يكرهون فيه كل ما يقيد حريتهم، ويحد من شهواتهم، وكانت قد تمكنت من نفوسهم عادات كثيرة وغرائز متنوعة، لا يستطيعون التحول عنها دفعة واحدة، فاقتضت الحكمة الإلهية إنزال القرآن منجماً وبحسب الوقائع والحاجات، تهيئة للنفوس كي تكون مستعدة لقبول الأحكام، إذ لو كانت الأحكام تأتي جملة مفاجأة لنقل عليهم ونفرت نفوسهم، لذلك وردت الأحكام التكليفية شيئاً فشيئاً ليكون السابق من الأحكام معداً للنفوس، ومهيئاً لقبول اللاحق، وكانت معظم الأحكام ينزل لسبب يقتضيه، فيكون أوقع في النفوس وأقرب إلى الانقياد.

ومن ذلك التدرج هو - كما يرى محمد رشيد رضا- تحريم الزنا إذ لم يحرم دفعة واحدة، وإنما عوض عنه بالزواج المؤقت، فد(تشريع المتعة هو من قبيل التدرج في تحريم الزنا كالتدرج في تحريم الخمر)^(١).

والتدرج في العبادات نلحظه بوضوح في تاريخ تشريع العبادات المفروضة محل البحث، فهذه الفرائض لم تُشرع دفعة واحدة على رغم من أهميتها في بناء الإنسان - كما سوف يتضح -، فنجد إن مشروعية فريضة الصلاة كانت ملحوظة منذ أوائل البعثة النبوية^(٢)، ولم تكن حينئذٍ بصفقتها المعروفة فيما بعد، فقد تدرجت في عدد

(١) تفسير المنار: ١٣/٥، ويرى الباحث أن هذا التدرج لا يصح لأن آيات التحريم القاطع للزنا قد نزلت في مكة قبل الهجرة، وهو في سورة النور وفي قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَايَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٠﴾﴾ ، والإباحة في زواج المتعة كان في سورة النساء المدنية وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ ، للتوسعة ظ: المقداد السيوري، كنز العرفان في فقه القرآن، ص ٥٠٦، وروى الطبري عن شعبة عن الحكم قال: سألته عن هذه الآية أمسنوخة هي؟ قال: لا، قال الحكم: قال علي(ؑ): لولا أن عمر (ؓ) نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي)، جامع البيان عن تأويل القرآن، ١٩/٥. وفي بيان جريمة الزنا كعقوبة وقائية في بناء المجتمع ظ: المؤلف، المنظور القرآني في بناء الانسان -دراسة تفسيرية -، كلية الفقه، جامعة الكوفة، ٢٠١٢م، الفصل الثالث ص ٢٧٢، أما تحريم الخمر فلعله المثال الواضح على هذا التدرج عند بعض المفسرين، للتوسعة ظ: ص ٣٢ من نفس الأطروحة، والخمر كعقوبة جزائية ظ: ص ٢٧١ منها.

(٢) ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٩/٢.

ركعاتها (إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشياً)^(١)، وفريضة الصوم كانت بعد مقدّمه (ﷺ) إلى المدينة بسنة وخمسة أشهر^(٢)، بل نلاحظ إن هذه الفريضة - الصوم - مُهد إليها بصيام كان بمثابة تمرين وتدرج قبل فرضها، إذ كان (الصوم في بداية التشريع واجباً تخييرياً، وكان المسلمون مخيرين بين الصوم والفدية، ثم نسخ هذا الحكم بعد أن تعوّد المسلمون على الصوم وأصبح واجباً عينياً)^(٣)، أما فريضة الزكاة فكان فرضها في السنة الثانية من الهجرة^(٤)، وفريضة الحج كان في السنة السادسة للهجرة^(٥).

فالتدرج في التشريع ضروري في ترسيخ الأحكام التكليفية، وما يستفيد منه المربي في هذا المجال هو العناية بالأطفال في القيام بالمهام العبادية والتدرج بهم؛ إذ إن الطفولة ليست مرحلة تكليف وإنما هي مرحلة إعداد وتدريب للوصول إلى مرحلة التكليف عند البلوغ، وأنّ (النواحي العبادية هي الأمور المهمة التي لا بد من أخذها بكل اهتمام وجدية على طريق تكملة بناء الإنسان المسلم وتتم هذه الخطوة عن طريق الوالدين والمربين، بأن يعودوا الطفل على ممارسة الأمور العبادية من صوم وصلاة، وما شابه ذلك، والغاية من ذلك تعويد الطفل وتمرينه على فعل العبادات والطاعات، وإن لم

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٦٢/٤، ط: محمد الخضري بك، تاريخ التشريع الإسلامي، دار القلم، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٣٦. وكذا نستدل على هذا التدرج بحديث الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) المستشهد به على مشروعيتها ص ١٤٤.

(٢) ط: اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) أحمد بن إسحاق بن وهب، تاريخ اليعقوبي، دار الزهراء، قم، ١٤٢٩هـ، ٢٨/٢.

(٣) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٣٦٦/١.

(٤) ط: نفس المصدر، ٣٣١/٤.

(٥) ط: محمد الخضري بك، تاريخ التشريع الإسلامي، ص ٤٢.

يدرك ما الفائدة منها، وما المنفعة المترتبة عليها، إلا أن ممارسته على فعلها مع تشجيعه عليها بحيث تصبح عادة لديه فلا تصعب عليه متى كبر وشبّ أن يؤدي صلاته، وحتى تصبح الصلاة وما فيها من فائدة جزءاً من تفكيره وسلوكه^(١).

وذلك أن إهمال سبيل التدرج مما يصعب على الإنسان فيما إذا بلغ من أداء العبادات فتدخل في نفسه من العادات السيئة التي يشق عليه تركها، يقول السيد محمد حسين الطباطبائي: (لم يزل الناس بقريحتهم الحيوانية يميلون إلى لذائذ الشهوة فيشيع فيهم الأعمال الشهوانية أسرع من شيوع الحق والحقيقة، وانعقدت العادات على تناولها وشق تركها والجري على نواميس السعادة الإنسانية، ولذلك أن الله سبحانه شرع فيهم ما شرع من الأحكام على سبيل التدرج، وكلفهم بالرفق والإمهال)^(٢).

وفي الحث على هذا التدرج في العبادة ما نلحظه في سنة المعصوم وفي قول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) إذ قال: (اجتهدت في العبادة وأنا شاب فقال لي أبي: يا بني دون ما أراك تصنع فإن الله عجل إذا أحب عبداً رضي عنه باليسير)^(٣)، فهذا الدرس في التدرج يحتثنا عليه الإمام المعصوم (عليه السلام) إذ (على الإنسان أن يراعي مراتب العبادة فلا يخوض الجاهل فيما يخوض فيه العالم، ويتعامل مع نفسه بالرفق والمدارة، ولا يحملها فوق طاقتها النفسية والجسدية وخاصة عند الشباب الأحداث الحديثي العهد بالمهمات، حيث لا ينجي فيها إلا الراشد المتعلم)^(٤).

(١) سهام مهدي جبار، الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٩٧م، ص ٢٦٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢/٢٢٠.

(٣) الكليني، الكافي: ٢/٨٧.

(٤) حسن علي المصطفى، فلسفة العبادات: ١٠٨.

ونلاحظ سماحة العبادات في قلة التكليف، إذ انمازت الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع السماوية بقلة التكليف حتى يسهل على الأمة المكلفة الامتثال، وحتى لا تقع المشقة والعنت، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن قَسَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١).

الأقوال في سبب نزول هاتين الآيتين مختلفة في مصادر الحديث والتفسير، ولكن الذي ينسجم أكثر مع سبب نزول هاتين الآيتين ما جاء عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: خطب رسول (ﷺ) فقال: (إن الله كتب عليكم الحج)، فقام عكاشة بن محصن وقيل سراقبة بن مالك، فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً، فقال رسول الله: (ويحك ما يؤمنك أقول: نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني كما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) (٢).

هكذا السماحة في العبادة بقلة التكليف وعدم المبادرة في السؤال، وهذا لا يعني عدم السؤال إطلاقاً وإنما الإحجام عن السؤال في تكاليف الدين التي لم يبينها الرسول (ﷺ) بعد، وإلا كان الجواب فيه مشقة وعناء وبالتالي تتحول العبادة عن أصل تشريعها وهو القرب من الله تعالى إلى وبال على الإنسان وكفر عند التقصير فيها،

(١) سورة المائدة: ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) الطبرسي ، مجمع البيان: ٣/٣٤١ .

ومعنى الآية (إن أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها، وذلك نحو ما روي)^(١).

فالإنسان العاقل يعبد الله سبحانه بما طلب وأمر منه من تكاليف العبادة التي شرعت له، وأن يلتزم بها من غير إفراط، وأن يعبد الله تعالى من حيث هو أراد فقط، وفي هذا المعنى يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (أمر إبليس بالسجود لآدم، فقال: يارب وعزتك إن أعفيتني من السجود لآدم لأعبدك عبادة ما عبدك احد قط مثلها، قال الله ﷻ: إني أحب أن أطاع من حيث أريد)^(٢)، وأن على الإنسان أن لا يبادر بالسؤال عن العبادة ما لم يوحى إلى الرسول (ﷺ) بها أو ينزل بها القرآن، يقول الرازي: (واعلم أن السؤال عن الأشياء وبما يؤدي إلى ظهور أحوال مكتومة يكره ظهورها، وربما ترتب عليه تكاليف شاقة صعبة، فأولى بالعاقل أن يسكت عما لا تكليف عليه فيه...، وأمّا السائل عن الحج، فقد كاد أن يكون ممن قال النبي (ﷺ) فيه (أن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من كان سبباً لتحريم حلال)، إذ لم يؤمن أن يقول في الحج إيجاب في كل عام)^(٣).

وقد أشار الإمام علي (عليه السلام) إلى هذا المعنى في سماحة العبادات وقلة التكاليف في قوله: (إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، وحد لكم حدوداً فلا تتعدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً فلا تتكلفوها)^(٤).

(١) الزمخشري ، الكشاف: ١٧٦/١.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ٢/٢٦٢.

(٣) مفاتيح الغيب: ٨٨/١٢.

(٤) نهج البلاغة ، شرح محمد عبده: ٤/٢٤ ، ظ: المجلسي ، بحار الأنوار: ٣٦٠/٢.

فهذه أمور تتعلق بالغيب، والغيب أمر خارج عن إرادة الإنسان، وهو غير مسؤول عنه، ولا نفع يعود منه على الإنسان، وأنّ السؤال المطلوب ما كان فيه إبهام أو إيهام أراد الكشف عنه المكلف، يقول سيد قطب: (أن المعرفة في الإسلام إنما تطلب لمواجهة حاجة واقعة وفي حدود هذه الحاجة الواقعة... فالغيب وما وراءه تصان الطاقة البشرية أن تقف في استجلائه واستكناهاه، لأن معرفته لا تواجه حاجة واقعية في الحياة البشرية، وحسب القلب البشري أن يؤمن بهذا الغيب كما وصفه العليم به، فأما حين يتجاوز الإيمان إلى البحث عن كنهه فإنه لا يصل إلى شيء أبداً، لأنه ليس مزوداً بالمقدرة على استكناهاه إلا في الحدود التي كشف الله عنها.... فوق أنّه ضرب في التيه بلا دليل، يؤدي إلى الضلال البعيد. وأما الأحكام الشرعية فتطلب ويسأل عنها عند وقوع الأقضية التي تتطلب هذه الأحكام.. وهذا هو منهج الإسلام^(١).

وهكذا نلتمس بوضوح سماحة العبادة في المنظور القرآني، وأنها سهلة ميسرة قليلة التكاليف مرفوعة الحرج والإرهاق مما يترسخ بناؤها في نفس الإنسان، ويتشرب بها بجميع جوارحه قلباً وقلباً.

وهذا بطبيعة الحال - وكما تمت الإشارة إليه - لا يعني أنّ الإنسان يأتي بالعبادة كيف ما اتفق، وإنما تكون العبادة عن بينة ومعرفة، يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (إنما يعبد الله من يعرف الله، أمّا من لا يعرف الله فإنما يعبد هكذا ضلالاً)^(٢)، ولذلك كان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) يخطئون ويلومون المنجرفين من دون هدي وتسلح كاف في ممارسة العبادات... وهذا ما نلحظه جلياً في قول الإمام علي (عليه السلام): (ألا لا خير في

(١) في ظلال القرآن: ٩٨٧/٢.

(٢) الكليني، الكافي: ١٨٠/١.

عبادة لا فقه فيها، ألا لا خير في نسك لا ورع فيه^(١)، وقال أيضاً (ﷺ): (سكنوا في أنفسكم معرفة ما تعبدون حتى ينفعكم ما تحركون من الجوارح بعبادة من تعرفون)^(٢). وإنّ المؤسسات المعنية إذا حرصت (على فهم النصوص التشريعية في إطار التوجيه القرآني لا استطعنا أن نضع لمجتمعاتنا كثيراً من الحلول الممكنة لمشاكلها القائمة)^(٣)، أما إذا انحرفت عن التنقيف لهذه العبادات المعرفية، فإنّها تفقد مكانتها المتميزة فيما يرغب إليه فيها من تحقيق الدعوة إلى سبيل الله تعالى، يقول الشيخ محمد مهدي الآصفي: (متى أخذ الخطاب الديني مساراً غير هذا المسار فقد قيمته، ولم يعد هذا الخطاب يمثل الناس ويعبّر عن طموحات الناس، وبالضرورة لم يعد الناس الذين يعود لهم أمر هذا الخطاب يحترمونه ويثقون به، ويقفون معه)^(٤). وبهذا تكون النتيجة الحتمية لهذا الانحراف عن فهم معنى العبادة الصحيح أن يقع الإنسان في المحذور الذي نبّه إليه الإمام علي (ﷺ) في قوله: (يأتي على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن إلا رسمه، ومن الإسلام إلا أسمه، مساجدهم يومئذ عامرة من البنى، خراب من الهدى، سكانها وعمارها شرّ أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة، وإليهم تأوي الخطيئة، يردون من شدّ عنها فيها، ويسوقون من تأخر عنها إليها)^(٥).

(١) المصدر نفسه: ٣٦/١.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ٦٣/٧٥.

(٣) د. محمد فاروق النبهان، المدخل للتشريع الإسلامي، دار القلم، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٨٦.

(٤) الخطاب الديني: ٩.

(٥) نهج البلاغة، شرح محمد عبده: ٨٨/٤.

ولكي ننجو مما حذر منه الإمام (عليه السلام)، ونبتعد عن هكذا زمان لا يكون إلا إذا عرف الإنسان مفهوم العبادة وتشربها بجوارحه، وألزمها نفسه لينعم بثمراتها، وهذا ما سوف نحاول - إن شاء الله تعالى - بيانه في الفصول التالية:

(٤٤) الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

الفصل الثاني

فريضة الصلاة وأثرها

في بناء الإنسان

(٤٦)..... الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

وقبل الولوج في مضامين هذا الفصل نقف مع مداليل لفظ الصلاة في اللغة والاصطلاح كمقدمه أولية إلى هذا الفصل، وعلى النحو التالي:

أولاً: الصلاة في اللغة والاصطلاح:

١. الصلاة في اللغة: الدعاء والاستغفار والرحمة والتسبيح، فالصلاة من الله تعالى رحمة، وصلاته على رسوله: رحمته له وحسن ثنائه عليه، والصلاة من الملائكة دعاء واستغفار، والصلاة من المخلوقين - الإنس والجن - القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح، والصلاة من الطير التسبيح^(١).

وقال ابن الأثير: (وهي العبادة المخصوصة، وأصلها في اللغة الدعاء، فسميت ببعض أجزائها، وقيل: أن أصلها في اللغة التعظيم، وسميت العبادة المخصوصة صلاة؛ لما فيها من تعظيم الرب تعالى، وقوله في التشهد (الصلوات لله) أي الأدعية التي يراد بها تعظيم الله تعالى، وهو مستحقها لا تليق بأحد سواه، فأما قولنا: (اللهم صل على محمد)، فمعناه: عظمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته، وتضعيف أجره ومثوبته، وقيل لما أمر الله سبحانه بالصلاة عليه، ولم يبلغ قدر الواجب من ذلك أحلناه على الله وقلنا: اللهم صل أنت على محمد لأنك أعلم بما يليق به)^(٢). وكذلك قال الفيومي: (الصلاة قيل أصلها في اللغة الدعاء)^(٣)، والظاهر أن الأصل في الصلاة الدعاء، وهذا ما نلحظه في قوله

(١) ظ: الرازي، مختار الصحاح: ٣٦٨، الفيومي، المصباح المنير، ص ٢٢١.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي وآخر، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، (دت)، ٥٠/٣.

(٣) المصباح المنير: ٢٢٢.

تعالى: ﴿وَأَخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿حُدِّثُوا أَنْبَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْحُكْمُ وَأَنْهُمْ كَانُوا مُكْفَرِينَ﴾^(٢). ومنه قول النبي (ﷺ):
(اللهم صل على آل أبي أوفى)^(٣). فالصلاة هنا بمعنى الدعاء (والسياق يفيد أنه دعاء لهم ولأموالهم بالخير والبركة وهو المحفوظ من سنة النبي (ﷺ) فكان يدعو لمعطي الزكاة ولماله بالخير والبركة)^(٤).

والصلاة بيت يصلي فيه اليهود، وهو كنيستهم والجمع صلوات، وقال ابن فارس: ويقال إن الصلاة من صليت العود بالنار إذا لينته، لأن المصلي يلين بالخشوع^(٥). ويرجح بعض اللغويين المعاصرين أن لفظ الصلاة ليس عربياً أصيلاً، وأنها في الآرامية (صلوطاً) من فعل معناه الانحناء والانثناء، وخرّجوا عليه بعض الأقوال التي منها أن أصل الصلاة (من الصلا) وهو ما عن يمين الذنب وشماله، أو من (الصلا) وهو عرق في وسط الظهر^(٦). وقالوا: إن هذه الأقوال تنتهي إلى المعنى الآرامي، وهو أن مأخذ الصلاة من حركة المصلي انحناءً وقياماً، حيث جاء في معجم ألفاظ القرآن

(١) سورة البقرة: ١٢٥.

(٢) سورة التوبة: ١٠٣، ومن العجيب هنا ما ذهب إليه الشيخ الزمخشري في عدم إفراد آل محمد (ﷺ) بالصلاة، لا شيء إلا أن جماعة من المسلمين التزموا بهذه الصلاة، إذ يقول: (إنها إن كانت على سبيل التبع كقولك: صلى على النبي وآله، فلا كلام فيها، وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو فمكروه، لأن ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله (ﷺ)، ولأنه يؤدي إلى الاتهام بالرفض...!)، الكشاف: ٥٦٨/٣.

(٣) البخاري، صحيح البخاري: ١٣٦/٢.

(٤) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٢/٩.

(٥) المصباح المنير: ٢٢٢.

(٦) ظ: الطبرسي، مجمع البيان: ٥٥/١.

قولهم: (ومن هذا المأخذ المشترك قد يمكن القول بأن المادة موجودة في غير لغة واحدة من الساميات مشتركة فيها، ويكون هذا مرجحاً إلى حد ما، للقول بأن مأخذ الصلاة من أعضاء للإنسان تتحرك عندها، هي الظهر أو موصل الفخذين لما يكون من الانثناء والانحناء عند الصلاة...)^(١).

٢. الصلاة في الاصطلاح: قال الجرجاني: (الصلاة في الشريعة: عبارة عن أركان مخصوصة، وأذكار معلومة بشرائط محصورة في أوقات مقدرة)^(٢). وقال الفقهاء: هي أقوال وأفعال مفتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة على تفصيل لدى المذاهب^(٣). وعبر عنها المفسرون بتعابير متقاربة منها قول الفخر الرازي: (الصلاة في الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة يتلو بعضها بعضاً مفتحة بالتحريم، ومختتمة بالتحليل)^(٤). وقال البغوي: (الصلاة في الشريعة اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود وثناء)^(٥). وقال ابن عاشور: (هي العبادة المخصوصة المشتملة على قيام وقراءة وركوع وسجود وتسليم)^(٦).

(١) مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية، مصر، ١٩٨٩، ١/٦٩٦.

(٢) كتاب التعريفات: ١١٠.

(٣) ظ: عبد الرحمن الجزيري وآخرون، الفقه على المذاهب الأربعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط ١، ٣/١٧٥، و د. سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م، ط ٢، ٣١٠، والمقداد السيوري، كنز العرفان في فقه القرآن، ٦٨.

(٤) مفاتيح الغيب: ١/٢٨.

(٥) معالم التنزيل في تفسير التأويل: ١/٢٣.

(٦) التحرير والتتوير: ١/٢٢٩.

والناظر إلى معنى الصلاة في اللغة والاصطلاح يجد أن الصلة بينهما وثيقة، فالدعاء والتعظيم واللزوم، كلها معان موجودة في الصلاة بمعناها الشرعي، وأطلقت على الصلاة كلها من باب تسمية الشيء ببعض أجزائه، وإن كانت في اللغة مأخوذة من (الصلوين) فهما موضعان في الإنسان يقوم عليهما الركوع والسجود، فلا ركوع ولا سجود بلا تحريك لهما، فأخذ اسم الصلاة منهما كما أخذ اسم (البيع) من (الباعين) اللذين يمدهما البائع والمشتري. وإن كانت الصلاة مأخوذة من (صلوتا) وهو موضع الصلاة فالصلة بين المعنيين ظاهرة...^(١).

المبحث الأول: رؤية عامة في الصلاة:

أولاً: الألفاظ المستعملة في معنى الصلاة في القرآن الكريم:

إنّ المتتبع للاستعمال القرآني يجد أنه ذكر الصلاة بأسماء شتى وألفاظ مختلفة منها:

١. سميت قياماً: لقوله تعالى ﴿قُرْآنًا لِّأَقِيلًا﴾^(٢)، ف(المراد بقيام الليل القيام فيه إلى الصلاة)^(٣).

٢. وسميت قراءة: وقد يعبر عن الصلاة بلفظ القرآن، لقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٤)، يقول البغوي: (وقرآن الفجر: هو صلاة

(١) ظ: د.فهد عبد الرحمن الرومي، الصلاة في القرآن الكريم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٦ ، ١٤١٤هـ، ١٠.

(٢) سورة المزمل: ٢.

(٣) محمد حسين الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن: ٥٦/٢٠.

(٤) سورة الإسراء: ٧٨.

الصباح^(١). وسُئِلَ الإمام الصادق (عليه السلام) عن أفضل المواقيت في صلاة الفجر؟ قال (عليه السلام): (مع طلوع الفجر، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾) يعني صلاة الفجر، تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار، إذا صلى العبد صلاة الصبح مع طلوع الفجر أثبتت له مرتين ثبته ملائكة الليل وملائكة النهار^(٢)، ولعل من الحكم في إطلاق اسم القرآن على صلاة الفجر ما للقرآن من إيقاعه في الحس في مطلع الفجر ونداوته ونسماته الرخية وهدوئه السارب وتفتحته بالنور ونبضه بالحركة وتنفسه بالحياة^(٣).

٣. سميت ركوعاً: وقد يعبر القرآن عن الصلاة بلفظ الركوع^(٤)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْكُعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٥) وفيها وجوه منها: (أنه عبر بالركوع عن الصلاة، يقول قائل: فرغت من ركوعي أي صلاتي، وإنما قيل ذلك لأن الركوع أول ما يشاهد من الأفعال التي يستدل بها على أنّ الإنسان يصلي^(٦))، إذ الصلاة شعار الإسلام والركوع مما يميز صلاة الإنسان المسلم عن غيره من اليهودي والنصراني.

(١) معالم التنزيل: ٣/٣٠٠.

(٢) الكليني، الكافي: ٣/٢٨٢.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٤/٢٢٤٦.

(٤) ظ: الدامغاني: أبي عبد الله، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، تحقيق: عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ٢٤٢.

(٥) سورة البقرة: ٤٣.

(٦) الطبرسي، مجمع البيان: ١/١٣٤.

٤. وسميت سجوداً: وقد يعبر القرآن عن الصلاة بالسجود^(١)، لقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (١٨) ^(٢)، يقول الألوسي: (أي المصلين فيه التعبير عن الكل بالجزء، وهذا الجزء على ما ذهب إليه البعض أفضل الأجزاء)^(٣). قال الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام): (أقرب ما يكون العبد من الله سجدة وهو ساجد)^(٤). وذلك في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ^(٥).

٥. وسميت ذكراً: وقد عبر القرآن عن الصلاة بلفظ الذكر^(٦). فتارة يعني به الصلوات الخمس في مثل قوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ^(٧). وتارة يعني به صلاة واحدة في مثل قوله تعالى: ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ^(٨) يعني صلاة الجمعة، وكقوله تعالى على لسان نبيه سليمان (عليه السلام): ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ ﴾ (٣٣) ^(٩). يعني صلاة العصر وحدها^(١٠)، ولعل سبب

(١) ظ: الدامغاني، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز: ٢٦٦، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية، بيروت (د.ت): ١٨٩/٣.

(٢) سورة الحجر: ٩٨.

(٣) روح المعاني: ٤٤١/١٤، وظ: البغوي، معالم التنزيل: ٢٤٣/٣.

(٤) الكليني، الكافي: ٢٦٥/٣.

(٥) سورة العلق، الآية ١٩.

(٦) ظ: الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١٤/١.

(٧) سورة النور: ٣٧.

(٨) سورة الجمعة: ٩.

(٩) سورة ص: ٣٢.

(١٠) ظ: الدامغاني، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز: ٢١٩.

أطلق لفظ الذكر على الصلاة هو أن الذكر جلاء القلوب وصقلها ودواؤها إذا غشيها اعتلال أو كلما أزداد الذاكر في ذكره استغراقاً أزداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً.

٦. وقد يعبر عن الصلاة بلفظ (الاستغفار)^(١): ففي مثل قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾

يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾^(٢)، يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: (ويرى الكثير من المفسرين أن المراد من (الاستغفار) هنا هو (صلاة الليل) لأن (الوتر) منها مشتمل على (الاستغفار)^(٣)، ونلاحظ في هذه الآية الكريمة صفة من صفات أهل الجنة الذين هم قليلو النوم كثيرو الصلاة (فهم الأيقاظ في جنح الليل والناس نيام، والمتوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام لا يطيعون الكرى إلا قليلاً، ولا يهجعون في ليلهم إلا يسيراً، يأسون بربهم في جوف الليل فتتجافى جنوبهم عن المضاجع، ويخف بهم التطلع فلا يتقلهم المنام!)^(٤).

٧. وقد يطلق القرآن على الصلاة لفظ (الإيمان)^(٥)، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(٦)، الكلام هنا في الصلاة إلى بيت المقدس، حيث أشاع بعض المغرضين أن أجر الصلاة قد ضاع بعد التوجه إلى الكعبة، فكأن القرآن بهذه الآية قد طمئن المسلمين أن أجر صلاتكم التي عبر عنها بإيمانكم إلى بيت المقدس محفوظة

(١) ظ: الفيروزآبادي ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١٨٩/٣.

(٢) سورة الذاريات: ١٨. وتتنظر: سورة الأنفال: ٣٣.

(٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ٦٣/١٧. والكرى: النوم.

(٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن: ٦/٣٣٧٧.

(٥) ظ: الفيروزآبادي ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١٥٠/٣.

(٦) سورة البقرة: ١٤٣.

عند الله تعالى^(١) وأن هذا التغيير - التحويل - كان لأسباب منها أن المسلمين (بهذا التحول وضعوا في بوتقة الاختبار لتخليصهم مما علق في نفوسهم من آثار الشرك، ولتقطع كل انشداداتهم بماضيهم المشرك، ولتنمو في وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر الله سبحانه)^(٢).

٨. وقد يطلق القرآن على الصلاة كلمة (الْقنوت)^(٣)، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيْتُ ءَأَنَاءَ الْيَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾^(٤). ذهب جملة من المفسرين إلى أن القنوت هنا هو الدعاء في الصلاة والإتيان بها بخشوع وخضوع وسكون^(٥). وكان الإطلاق هنا القنوت على الصلاة لاشتمال الصلاة عليه، ولما يتمثل فيه من خشوع وسكون ما يتمثل في الصلاة عموماً؛ لأن الأصل في القنوت هو (الإتيان بالدعاء أو غيره من العبادات في حال القيام، ويجوز أن يطلق في سائر الطاعات، فإنه وإن لم يكن فيه القيام الحقيقي، فإن فيه القيام بالعبادة)^(٦).

٩. وقد يطلق القرآن على الصلاة اسم الحسنات، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْعًا مِنْ آيَاتِ إِنْ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكِرِينَ﴾^(٧). فالحسنات

(١) ظ: القاسمي، محاسن التأويل: ٣٦٨/١ - ٣٦٩.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٢٩١/١.

(٣) ظ: الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٢٩٨/٤.

(٤) سورة الزمر: ٩، وتنتظر: سورة البقرة: ٢٣٨.

(٥) ظ: الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن: ٦٨٤/٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير:

٤٤٧/٢، وناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٣٢/٢.

(٦) الطبرسي، مجمع البيان: ١٠٠/٢.

(٧) سورة هود: ١١٤.

التي تذهب السيئات هي الصلوات الخمس المكتوبات^(١)، وذلك (تعليل لقوله (وأقم الصلاة) وبيان أن الصلوات حسنات واردة على نفوس المؤمنين تذهب بآثار المعاصي، وهي ما تعترتها من سيئات)^(٢).

١٠. وقد يعبر القرآن عن الصلاة بلفظ التسبيح^(٣)، في مثل قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾^(٤). والتسبيح يراد به تنزيه الله تعالى من النقائص، أي: أبرئ الله تعالى من السوء براءة^(٥)، وهو بهذا ذكر، ولا يوجد ذكر أفضل من الصلاة فهي ذكر باللسان وقصد بالجان، ولهذا يبدو أن بعض المفسرين ذهبوا إلى أن التسبيح هنا هو الصلاة، وقال البغوي: (وقيل معناه: صلوا لله (حِينَ تُمْسُونَ) أي تدخلون في المساء، وهو صلاة المغرب والعشاء، و(حِينَ تُصْبِحُونَ) أي تدخلون في الصباح، وهو صلاة الصبح، (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) قال ابن عباس: يحمده أهل السماوات وأهل الأرض، ويصلون له، وعشياً يعني صلاة العصر، (وَحِينَ تُظْهِرُونَ) تدخلون في الظهيرة، وهو الظهر، قال نافع بن الأزرق لابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ هاتين الآيتين، وقال: جمعت الآية الصلوات الخمس

(١) ظ: الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ١٥٧/١٢.

(٢) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٥٢/١١.

(٣) ظ: الدامغاني، والوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز: ٢٧٧.

(٤) سورة الروم: ١٧-١٨، وتنتظر: سورة الحديد: ١، وسورة الحشر: ١، وغيرها.

(٥) ظ: الرازي، مختار الصحاح: ٢٨٢.

ومواقبتها^(١). فالمصلي المداوم على الصلاة ينزه الله تعالى، وأنه سبحانه أهل للعبادة ولما فيه من التنزيه.

١١. وقد يطلق القرآن على الصلاة لفظ الحمد^(٢). قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣). والحمد يأتي بمعنى الصلاة، والظاهر أنه يراد به هنا صلاة النهار قبيل التسبيح الذي يراد به صلاة الليل^(٤)، فالحمد هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها، والحمد أنواع^(٥) تتجلى في الصلاة التي هي أعظم الحمد والعبادات.

١٢. وقد يعبر القرآن عن الصلاة بلفظ الدعاء: وذلك أن الصلاة أشهر معانيها الدعاء، وجاءت في القرآن المجيد بهذا المعنى في كثير من آياته منها قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(٦)، فالمراد من الدعاء، هنا هو الصلاة^(٧)، ويبدو أن الحكمة من هذا التعبير هو اشتمال الصلاة على الطلب. والخضوع والتذلل لله ﷻ، وهو ما نلحظه من هذه المعاني في الدعاء.

(١) معالم التنزيل: ٢٢٩/٤ ، وظ: الطبرسي، مجمع البيان: ٣٩/٨ ، والآلوسي ، روح المعاني: ٤٠/٢١ .

(٢) ظ: الدامغاني، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز: ١٧٦ .

(٣) سورة الروم: ١٨ .

(٤) ظ: الطبرسي ، مجمع البيان: ٤٠/٨ .

(٥) ومنها الحمد الحالي، والحمد المعرفي، والحمد الفعلي، والحمد ألقولي، للتفصيل ظ: الجرجاني، كتاب التعريفات: ٧٦ .

(٦) سورة الكهف: ٢٨ .

(٧) ظ: القاسمي ، محاسن التأويل: ٢٧١٠/٧ ، وابن عاشور ، التحرير والتتوير: ٥٥/١٥ .

ثانياً: الصلاة تشريعها وصفتها ومنزلتها:

أولاً: أدلة مشروعيتها: يدل على فرض الصلاة المكتوبة: القرآن المجيد والسنة.

١. دليل القرآن على الصلاة: والأدلة في القرآن الكريم كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(١)، يقول السيد الطباطبائي: (فظاهر

اللفظ إن الصلاة فريضة موقته منجمة تؤدي في أوقاتها ونجومها)^(٢)، وقال تعالى:

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرِّكَابِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ

السَّمْسِ إِلَى عَسْقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٤).

فنلاحظ بوضوح اقتران الصلاة بلفظ (أقيموا، أقم، أقاموا،...) وما ذلك إلا لوجوب

الصلاة الفريضة والحث على الالتزام بها، وهذه الإقامة للصلاة تكون مقرونة بطبيعة

الحال بمعرفة حقيقتها وماهيتها، وكذلك بشروطها التي وضحتها كتب الفقه

المختصة^(٥)، يقول الراغب الأصفهاني: (ولم يأمر تعالى بالصلاة حينما أمر ولا مدح

(١) سورة النساء، الآية ١٠٣.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ٥٧/٥.

(٣) سورة البقرة: ٤٣.

(٤) سورة الإسراء: ٧٨، ظ: سورة التوبة: ٥.

(٥) من شروط الصلاة التي تصح بتكاملها وتبطل الإخلال بواحدة منها هي: ١- الإسلام، ٢-

رفع الأحداث، ٣- تأديتها بالوقت، ٤- التوجه إلى القبلة، ٥- النية، ٦- ستر العورة، ٧-

طهارة الجسم واللباس، واعتبار محل القيام واعتبار محل السجود، ظ: علي أصغر مرواريد، الينايع

الفقهية، دار التراث، بيروت، ١٩٩٠، ١/١٧٩. وفي إعداد الفرائض ونوافلها ومواقيتها وجملة من

أحكامها، على سبيل المثال ظ: السيد علي الحسيني السيستاني، منهاج الصالحين، العبادات، دار

المؤرخ العربي، بيروت، ط ٢، ١/١٩٩٦/١٦٥.

بها حيثما مدح إلا بلفظ الإقامة، تنبيهاً على أن المقصود منها توفية شروطها لا الإتيان بهيئاتها... وكذلك الإقرار بوجوبها^(١).

إن أمر وجوب الصلاة بهذا اللفظ أقيموا... ليس معناه أداءها فحسب، بل هو دعوة الإنسان إلى إقامتها وفق شروطها وماهيتها، وبناء الإنسان ليكون متمثلاً بهذه الحقيقة، وكذلك دعوة الغير لبناء (إنسان المجتمع) المقيم للصلاة، وهذا ما ألفت إليه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بقوله: (ومن الملفت للنظر أن الآية لم نقل (أداء الصلاة) بل قالت: (أقيموا الصلاة)، هذا الحث يحتمل الفرد مسؤولية خلق المجتمع المصلي، ومسؤولية جذب الآخرين نحو الصلاة)^(٢)، فيتضح أن دليل مشروعية الصلاة في القرآن المجيد لم يقتصر على الأداء فقط، بل تعدى الأمر إلى الإقامة التي مؤداها نشر الفريضة، وأن يكون بناء الإنسان من خلالها وتمثلها في المجتمع الإنساني.

٢. دليل تشريع الصلاة من السنة الشريفة: وكذا السنة الشريفة الحافلة بأدلة تشريع الصلاة الفريضة ومنها: ما روي عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله (ﷺ): (بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة)^(٣)، وقال رسول الله (ﷺ): (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر)^(٤).

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٩٣.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ١/١٣٩.

(٣) الترمذي (ت ٢٧٩هـ) سنن الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣: ١٢٥/٤، والمجلسي، بحار الأنوار: ٧٩/٢٠٢.

(٤) الترمذي، سنن الترمذي: ١٢٦/٤.

وقال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (كان الذي فرض الله على العباد من الصلاة عشر ركعات وفيهن القراءة وليس فيهن وهم يعني سهواً فزاد رسول الله (صلى الله عليه وآله) سبعاً، وفيهن الوهم وليس فيهن قراءة)^(١)، وسُئل الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) عن الفرض في الصلاة، فقال (عليه السلام): (الوقت والطهور والقبلة والتوجه والركوع والسجود والدعاء - قيل ما سوى ذلك؟- قال (عليه السلام) سنة في فريضة)^(٢).

وفي أهمية الصلاة الفريضة يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (الصلاة فريضة خير من عشرين حجة، وحجة خير من بيت مملوء ذهباً يتصدق منه حتى يُفنى)^(٣)، وفي النهي عن الاستخفاف الذي هو بطبيعته أهون من تركها نلتمس وجوبها والغلظة في التسامح فيها من قول الإمام الصادق (عليه السلام): (لا تتهاون بصلاتك فإن النبي (صلى الله عليه وآله) قال عند موته: (ليس مني من استخف بصلاته، وليس مني من شرب مسكراً، لا يرد علي الحوض لا والله)^(٤).

ثانياً: صفة الصلاة المطلوبة:

ينبغي أن تكون الصلاة التي يقوم بها الإنسان صادرة عن سكينة ودعاء وتضرع وتذكر لله تعالى، وعلى المسلم أن يجتهد ليصل إلى هذه المعاني، فإن اجتهد ولم يصل فلا يحاسب، لأنه بذل الجهد، وهو لا يكلف فوق طاقته لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٥). ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾

(١) الكليني ، الكافي: ٢٧٢/٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه : ٢٦٥/٣.

(٤) الكليني ، الكافي: ٢٦٥/٣.

(٥) سورة البقرة: ٢٨٦.

لِذِكْرِهِ^(١)، فهذا الذكر يربط الإنسان بالله سبحانه قلباً وقالباً، وبالتالي فهو يذكر الله تعالى بالشكل والمضمون. فالصلاة (أهم ارتباط بين الخلق والخالق، وأكثر الطرق تأثيراً في عدم الغفلة عن الذات المقدسة)^(٢)، ولهذا لا يمكن أن تكون الغفلة عن الله سبحانه والإنسان مداوم على ذكر الله في الصلوات حارصاً على (حضور القلب، وفراغ البال، والتوجه الكلي إلى الخالق المتعال، حتى يتمكن المذكور في القلب، وتتجلى عظمته الباهرة عليه، ويشرح الصدر بشروق نوره عليه، وهو غاية ثمرة العبادات)^(٣).

فالصلاة من أهم وأبرز وسائل تحقيق ذكر الله ﷻ، لأن الذكر غاية الصلاة، والصلاة وسيلة الذكر، وعظمة الوسيلة تكمن في عظمة الغاية، والذكر هو الطاعة التي أرادها الله سبحانه من خلق الإنسان وإيجاده، والغفلة معصية وضلال، وهذا ما نلاحظه في قول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (من كان ذاكراً لله على الحقيقة فهو مطيع، ومن كان غافلاً عنه فهو عاص، والطاعة علامة الهداية، والمعصية علامة الضلالة، وأصلهما من الذكر والغفلة)^(٤).

وهذه الصلاة التي تتحقق بهذه الصفة الذاكرة لله تعالى تحتاج إلى أن ينقي الإنسان نفسه من الشوائب المانعة من تحقيق صفة الذكر الخالص لله تعالى، وأشد هذه الموانع هو الكبر الذي يحول بين الإنسان وبين الغاية (الذكر)، فكانت الصلاة

(١) سورة طه: ١٤.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي، الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٧٨/٩.

(٣) النراقي: محمد مهدي (ت ١٣٠٩ هـ)، جامع السعادات، حققه: السيد محمد كلانتر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ٤: ٣/٣٦٣.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار: ١٥٨/٩٠.

عاملاً مهماً في هذا الجانب لتذليل مانع الكبر، لما تضيفه على الإنسان من تواضع وتذلل وخضوع، وإلى هذا تبدو إشارات الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام) إذ قالت: (والصلاة تنزيهاً لكم من الكبر)^(١).

فعلى الإنسان التجرد من بواعث النفس الهدامة، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، والعمل على تطهير قلبه من عوالق الدنيا، كما يظهر ثوبه من النجاسات المبطلة للصلاة والمانعة من أدائها فضلاً عن إقامتها، يقول السيد عبد الأعلى السبزواري: (فلا بُدَّ حين التوجه إلى حضرته تعالى بالصلاة من الالتزام بالجهات الدينية والخلو عن العلائق الدنيوية، ودفع الأنجاس عن نفسه الظاهرية منها والباطنية، ويتطهر من دنس الذنوب والأخلاق الذميمة حتى تترتب على صلواته الفوائد التي جعلها الله تعالى في الدنيا والآخرة)^(٢).

ولتمام تحقق معاني الصلاة لا بد من حضور عقل المصلي عند أدائه الصلاة ليسمو بها إلى مرتبة الإقامة، وهذا المعنى نلحظه في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٣). فإذا شرد العقل وسرح انتفت تلك

(١) المصدر نفسه: ٢٩/٢٢٣.

(٢) حسين نجيب محمد، جمال السالكين العالم الرياني السيد عبد الأعلى السبزواري، طبع النجف الاشرف، (دت)، ص ١٤٣.

(٣) سورة النساء: ٤٣. ومن المناسب لهذا المقام القول أن السكر لا يقتصر على السكر الناتج عن شرب الخمر، بل كل ما هو يشرد العقل به مثل (سكر النعاس، وغلبة النوم)، ظ: الآلوسي: روح المعاني: ٥١/٥. وحذر أمير المؤمنين علي (عليه السلام) من أنواع أخطر من السكر الذي يُذهب العقل فقال: (ينبغي للعاقل أن يحترس من سكر المال، وسكر القدرة، وسكر العلم، وسكر المدح، وسكر الشباب، فإن لكل ذلك رياحاً خبيثة، تُسلب العقل وتستخف الوقار)، الميرزا النوري (ت ١٣٢٠هـ)، مستدرک الوسائل، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨م: ٣٧١/١١.

المعاني، ومن ثم فإن المصلي لم يأت بالصلاة المطلوبة التي تكون (معراجاً لروحه في آفاق من الفهم والمعرفة)^(١) تسبح في ملكوت الله تعالى وفيوضات الذكر المقدس الذي يجعل (هذا الإنسان يشعر أنه أسمى من جميع المخلوقات الأخرى، إذ أنه منح لياقة الحديث مع ربّ العالمين، وهذا الإحساس الوجداني أكبر عامل في تربية الموجود البشري)^(٢) والسمو به في آفاق المطلق ﷻ.

ثالثاً: منزلة الصلاة وخصائصها في القرآن الكريم:

مكانة الصلاة في الدين الإسلامي مكانة رفيعة، ويمكن أن نلاحظ هذه المنزلة من

خلال ما يلي:

١. مدح الله تعالى القائمين بها والداعين إليها الأمرين بها أهلهم وذوهم، فقال

سبحانه: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ

بِالصَّلَاةِ ﴿٣﴾﴾. إذ (كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءه،

ولأنهم أولى من سائر الناس)^(٤)، فلأجل هذا العمل وإقامة العبادة المتجلية في الصلاة

استحق من الله تعالى (الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة)^(٥).

(١) محمد جعفر شمس الدين، الصلاة الإسلامية، دار التعارف، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م: ٥٢، وظ:

لجنة التأليف، دليل الحياة في القرآن الكريم، مؤسسة البلاغ، ٢٠١١م: ٦٨.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٦٢/١، ظ: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢٤٥٤/٤.

(٣) سورة مريم: ٥٤-٥٥.

(٤) الزمخشري، الكشاف: ٢٥/٣.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ١٣٠/٣.

٢. ذم الله المضيعين لها والمتكاسلين عنها، قال تعالى: ﴿خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (٥٩)^(١). ونلاحظ أن تأخير أداء الصلاة عن وقتها عدّه القرآن الكريم إضاعة لها، فهؤلاء الخلف أضاعوا الصلاة (تأخيرهم إياها عن مواقيتها، وتضييعهم أوقاتها)^(٢)، وسبب هذا الذم يكمن أيضاً في عظيم شأن الصلاة على سائر العبادات، ف(إذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع، لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد)^(٣)، وبالتالي نلاحظ عواقب هذا التكاسل والتضييع للصلاة إلى انتشار الرذيلة والتجاهر بالمعاصي، بعد أن فقدوا العاصم لهم ف(يتراكبون تراكب الأنعام والحرر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون الناس في الأرض)^(٤). فكل هذه القبائح بسبب انهيار السد العاصم للإنسان منها، فاستحق الذم من الله تعالى المضيع لها.

٣. ومن منزلة الصلاة أنّها عمود الدين الذي لا يقوم الدين إلاّ به، قال رسول الله (ﷺ): (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)^(٥)، وكذلك ورد عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) قوله: (الصلاة عمود الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود ثبتت الأوتاد والأطناب)^(٦). وبالتالي إذا سقط العمود سقط ما بني عليه.

(١) سورة مريم: ٥٩.

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ١١٥/١٦.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ١٣٢/٣.

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ١١٦/١٦.

(٥) الترمذي، سنن الترمذي: ١٢٤/٤.

(٦) المجلسي، بحار الأنوار: ٢١٨/٧٩.

٤. أول ما يحاسب عليه الإنسان من عمله، فصلاح عمله وفساده بصلاح صلاته وفسادها، وهذا ما نلاحظه في قول النبي (ﷺ): (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر)^(١)، وإن كانت أعماله العبادية على خير ولا صلاة له فلا ينظر البتة إلى تلك الأعمال الصالحة في ظاهرها، فهي مفتاح لحساب سائر تلكم الأعمال، يقول الإمام علي (عليه السلام) في الصلاة: (وهي أول ما ينظر الله فيه من عمل ابن آدم، فإن صحت نظر في باقي عمله، وإن لم تصح لم ينظر له في عمل، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة)^(٢).

٥. ومن عظم شأن الصلاة أن الله تعالى لم يفرضها في الأرض بواسطة جبرائيل (عليه السلام)، وإنما فرضها بغير واسطة ليلة الإسراء والمعراج، من فوق سبع سماوات^(٣)، يقول الشيخ الأنصاري (ت ١٢٨١هـ): (وفي أصل تشريع الصلاة ليلة المعراج)^(٤)، فأية منزلة رفيعة لهذه العبادة؟ وأي شأن روحي سنه الله تعالى للإنسان؟! وأي حب لله تعالى لهذه الصلاة التي تشرع وتأسس بهذه الطريقة المباشرة بين الرحمن عز وجل والحبيب محمد (ﷺ)؟ وفي السماوات من دون الأرض.

(١) الترمذي ، سنن الترمذي: ٢٥٨/١.

(٢) المجلسي ، بحار الأنوار: ٢٢٧/٧٩.

(٣) ظ: سعيد بن وهف القحطاني، منزلة الصلاة في الإسلام ، دار الخنساء ، بغداد ، (د.ت): ١٦.

(٤) الأنصاري، مرتضى محمد أمين، كتاب الصلاة، تحقيق: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، الناشر: المؤتمر العالمي بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاد الشيخ الأنصاري، مطبعة باقري، قم، ١٤٢٠هـ: ١٨/٢. وهذا يؤكد خلاف ما خلص إليه الدكتور أحمد صبحي منصور من ان هذه الصلاة هي نفس الصلاة التي كانت تؤديها الأمم الغابرة قبل بعثة الرسول الأعظم (ﷺ)، ظ: الصلاة بين القرآن الكريم والمسلمين، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٢٣.

٦. أفتح الله تعالى أعمال المفلحين بالصلاة واختتمها بها، وهذا يؤكد أهميتها،

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ

مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ

هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ ﴾^(١). فنلاحظ أنَّ الآية

الأولى تشير إلى الفلاح وهو الظفر وإدراك البغية في الدنيا، وهو البقاء والغنى والعز،

وفي الآخرة بأربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا

جهل^(٢)، ومن ثم انطلقت الآية بعده - أي الفلاح - إلى ذكر صفات المفلحين، وأولها

كانت آية الصلاة (وهذه الآية إلى تمام ثماني آيات تذكر من أوصاف المؤمنين ما

يلزم كون وصف الإيمان حياً فعلاً يترتب عليه آثاره المطلوبة منه ليترتب عليه

الغرض المطلوب منه وهو الفلاح فإن الصلاة توجه ممن ليس له إلا الفقر والذلة إلى

ساحة العظمة والكبرياء، ومنبع العزة والبهاء ولازمه أن يتأثر الإنسان الشاعر

بالمقام^(٣). ويدرك السعادة من خلال الفلاح الذي يبدأ بالصلاة وينتهي بها.

٧. أمر الله تعالى نبيه محمداً (ﷺ) وأتباعه أن يأمروا بها أهلهم، قال سبحانه:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنُقِبَةُ لِلتَّقْوَى ④ ﴾^(٤). فالصلاة

هي العبادة التي تقوي في الإنسان سائر العبادات وبنائها فيه يترجم الإيمان، وهي

(١) سورة المؤمنون: ١-٩.

(٢) ظ: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٦٤٤.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٦/١٥.

(٤) سورة طه: ١٣٢.

تقوي الإيمان، وأولى الناس بالهداية إلى الصلاة وبنائها فيهم الأقربون من الأهل، وهذا ما وجه به القرآن المجيد؛ لأن (أول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم، وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم معه بالله، فتوحد اتجاههم العلوي في الحياة، وما أرواح الحياة في ظلال بيت أهله كلهم يتوجهون إلى الله تعالى)^(١)، وينظر إليهم سبحانه نظرة رحمة وغفران، وكل ذلك من الأمر بالصلاة والإرشاد إليها بوفق ما يحتاج إليه المقام في الإرشاد.

وفي السنة الشريفة يقول الحبيب محمد (ﷺ): (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع)^(٢)، إذ يبدأ الوالدان بتوجيه الأوامر للطفل بأن يقف معهما في الصلاة، وذلك في بداية وعيه وإدراكه^(٣)، وذلك (أن الطفل ينشأ فيعمل ما يعمل أبواه، فإذا كانا يقيمان الصلاة فعل مثلهما وانطبعت في ذهنه تلك الصورة وتأثر بها مدى الحياة)^(٤)، فهو قد لا يفهم (العبارات التي يؤديها في أثناء الصلاة، ولكنه يفهم معنى التوجه نحو الله)^(٥).

٨. وتكمن منزلة الصلاة في الدين الإسلامي في أنها آخر وصايا النبي الخاتم (ﷺ) والإمام المعصوم، فعن السيدة أم سلمة أنها قالت: (كان آخر وصايا النبي (ﷺ): الصلاة وما ملكت أيمانكم، حتى جعل رسول الله (ﷺ) يغرر بها صدره،

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٤/١٣٥٧.

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال: ٤٣٩/١٦، وظ: المجلسي، بحار الأنوار: ١٠١/٥٠.

(٣) ظ: خالد عبد الرحمن العك، تربية الأبناء والبنات في ضوء القرآن والسنة، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ٢٠٠١م: ١٢١، وسهام مهدي جبار، الطفل في الشريعة الإسلامية: ٢٧٢.

(٤) سهام مهدي جبار، الطفل في الشريعة الإسلامية: ٢٧٢، وظ: محمد تقي فلسفي، الطفل بين الوراثة والتربية، تعريب: فاضل الحسيني الميلاني، دار سبط النبي، قم، ٢٠٠٥م، ٢/١٤٥.

(٥) محمد تقي فلسفي، الطفل بين الوراثة والتربية: ٢/٥٠.

وما يكاد يفيض بها لسانه^(١)، وقال الإمام علي (عليه السلام): (أوصيكم بالصلاة التي هي عمود الدين، وقوام الإسلام فلا تغفلوا عنها)^(٢)، وللحظات الأخيرة من حياة علي (عليه السلام) كانت وصيته في الصلاة، قائلاً: (الله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم)^(٣)، وفي مورد آخر، قال (عليه السلام): (الله الله في الصلاة فإنها خير العمل)^(٤). وأن يختم النبي (صلى الله عليه وآله) والمعصوم آخر مهامها الرسالية بالتذكير بالصلاة والحث على أدائها وقيامها، فيه دلالة واضحة على منزلة الصلاة بأن آخر ما وصى به المعصوم الصلاة لعظم شأنها وخطرها في الدين الإسلامي، ويمكن أن نجمل بعض خصائص الصلاة التي انفردت بها عن سائر الأعمال الصالحة ومنها^(٥):

١ - سمي الله الصلاة إيماناً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ

لِرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٣﴾^(٦).

٢ - خصها بالذكر تمييزاً لها من بين شرائع الإسلام، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا

إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾^(٧)، وخصها بالذكر مع دخولها في جميع الخيرات.

(١) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، دار صادر، بيروت، (دت): ١١٧/٣، وظ: المتقي الهندي، كنز العمال: ١٢/٨٠.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ٢٣٢/١٠٩.

(٣) نهج البلاغة، شرح محمد عبده: ٧٧/٣.

(٤) الكليني، الكافي: ٥٢/٧، والمجلسي، بحار الأنوار: ٢٤٩/٤٢.

(٥) ظ: سعيد القحطاني، منزلة الصلاة في الإسلام: ١٩.

(٦) سورة البقرة: ١٤٣.

(٧) سورة الأنبياء: ٧٣.

٣- قرنت في القرآن المجيد بالكثير من العبادات ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرِّكَابِ ﴾ (٤٣)^(١). وقال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ

﴿ (٢) ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٣٠)^(٣).

وقرنت بالتصديق، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَلَاةَ وَلَا صِلَىٰ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْآخِرَةِ ﴾ (٣١)^(٤).

٤- أوجبها الله تعالى على كل حال ولم يعذر بها مريضاً، ولا خائفاً، ولا مسافراً،

ولا غير ذلك، بل وقع التخفيف تارة في شروطها، وتارة في أفعالها، ولم تسقط مع

إثبات العقل، قال تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ

﴿ (٣٨)^(٥)، (ف) المسلم لا ينبغي له ترك الصلاة حتى في أصعب الظروف والشرائط كما

في ميدان القتال، غاية الأمر إن كثيراً من شرائط الصلاة في هذا الحال تكون غير

لازمة، كالاتجاه نحو القبلة وأداء الركوع والسجود بالشكل الطبيعي)^(٦)، وكذلك اشتراط

الزينة باللباس، واستقبال القبلة مما لم يشترط في غيرها، قال تعالى: ﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ حُدُوًّا

زِينَتِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٧). وإن من الزينة الطيب، والمشط وأخذ أحسن هيئة للصلاة^(٨).

(١) سورة البقرة: ٤٣.

(٢) سورة الكوثر: ٢.

(٣) سورة الأنعام: ١٦٢.

(٤) سورة القيامة: ٣١-٣٢.

(٥) سورة البقرة: ٢٣٨.

(٦) ناصر مكارم الشيرازي، الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٣٢/٢.

(٧) سورة الأعراف: ٣١.

(٨) ظ: القاسمي، محاسن التأويل: ١٧٧٣/٥، وناصر مكارم الشيرازي، الأمتل في تفسير كتاب الله

المنزل: ١٦/٥.

٥- استعمالها في جميع أعضاء الإنسان من القلب واللسان والجوارح، وليس ذلك لغيرها من العبادات، ونهى عن أن يشتغل فيها بغيرها بالخطرة واللفظة والفكر.

٦- وهي دين الله تعالى الذي يدين به أهل السماوات والأرض، وهي مفتاح شرائع الأنبياء، ولم يُبعث نبيّ إلا بالصلاة التي هي الصلة بين العبد وربّه.

يتضح مما سبق أن الصلاة المقرونة بالتأمل والتدبر أكثر العبادات التي توصل العبد بربه، وتلصقه به، ولذلك جعلت الصلاة قرّة عيني النبي (ﷺ) في هذه الصلاة التي يكون فيها الإنسان أقرب ما يكون من ربه، يقول الإمام علي (عليه السلام): (الصلاة قربان كل تقي)^(١)، فالمحبون يتقربون إلى حبيبهم الرحمن الرحيم بالصلاة التي تكون قرّة عيونهم، يقول الرسول (ﷺ): (حبب إلي من دنياكم: النساء، والطيب، وجعل قرّة عيني في الصلاة)^(٢).

فمن كانت قرّة عينه الصلاة كيف يقر بغيرها؟، فمحض سروره وبهجته إنما هو في الصلاة التي هي صلة بالله والحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه سبحانه، فمن استشعر هذه النعمة استشعر معناها^(٣). يقول السيد محمد باقر الحكيم (استشهد ١٤٢٤ هـ): (إن هذه الصلاة هي أفضل العبادات بعد معرفة الله تعالى على

(١) الكليني، الكافي: ٢٦٤/٣.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ١٤١/٧٣، ولفظ قريب، ظ: المتقي الهندي، كنز العمال: ٢٨٨/٧.

(٣) ظ: لجنة التأليف، الصلاة عبادة وتربية، مؤسسة البلاغ، مطبعة الصدر، ط٤، ٢٠٠٥م، ٢٧.

الإطلاق - كما دلت على ذلك الروايات - لأنها تُعبر عن الصلة والعلاقة بالله تعالى، التي لا يجوز أن تنقطع في كل حال (١).

إذن لا بد في الصلاة من اجتياز ساحة الحس والمشاهدة المادية، والإطّلال بإحساس الروح والوجدان على عالم الجلال والملكوت الأعلى، وبناء الإنسان لحضوره بهذه الحالة المتيقظة بين يدي الله تعالى، لتستريح الروح المثقلة بعناء الحياة ونير الذنوب من معاناتها المرهقة، ولتتنفس عبير القرب والراحة عبر هذه الأجواء الإيمانية العبقّة.

المبحث الثاني: آثار بناء الصلاة على الإنسان

الصلاة أول فرائض الإسلام، وهي نهج متكامل في تربية الإنسان، تطهره ظاهراً وباطناً، وتروي فيه شجرة الفطرة الإنسانية بماء الوضوء، ونور الذكر وروعة التجرد لله تعالى، فكل ما تنتشده الإنسانية من مساواة وعفة ومحبة وقوة وأدب في واقع ملموس، تراه في أصوات الساجدين المتبتلين والداعين والذاكرين والمتجهين لربهم، وتنبين أهداف الصلاة وآثارها في بناء الإنسان - بقدر المستطاع - بالأمور الآتية:

أولاً: الصلاة امتثال لأمر الله تعالى: إن أهم هدف للصلاة هو الامتثال لأمر الله **وَعَلَىٰ**، بغض النظر عن أي هدف آخر للصلاة، فانه تعالى أمر بالصلاة بأدلة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ **وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَادْعُوا إِلَىٰ مَعَالِمِ اللَّهِ** ﴾ (٢). والعبد المخلوق لا يسعه إلا أن يمتثل لأمر الله سبحانه، فيصلّي كما أمر، وهذا الامتثال يُعَلِّم المرء

(١) دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، النجف الاشرف، ط٥، ٢٠٠٧م، ٣١١/٢.

(٢) سورة البقرة: ٤٣.

كيفية خضوع القلب لجلال الله تعالى، وكيفية تأديب الجوارح خشوعاً لعزته، وهذا الامتثال لا يقف أي حائل دون تطبيقه وتحقيق الارتباط بين العبد وخالقه. يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: (إن إقامة الصلاة والارتباط بين العبد وخالقه يجب أن يتحقق في جميع الظروف والحالات، وبهذا تتحصل نقطة ارتكاز الإنسان واعتماده على الله، فتكون مبعث الأمل والرجاء في الحياة وتعينه في التغلب على جميع المصاعب والمشكلات)^(١).

ثانياً: الصلاة وسيلة عظيمة لتعظيم المنعم **عجل** وتقديسه بكافة أنواع التعظيم والتقديس، فهي قد اشتملت على كل أنواع التعظيم التي يعظم بها الناس بعضهم بعضاً، فمن الناس من يعظم برفع الأيدي إلى الرأس، ومنهم من يعظم بالانحناء، ومنهم من يعظم بالركوع والسجود وبالقيام في صمت وخشوع.

والصلاة في كل أعمالها لا تخرج عن هذه الأفعال التي تدل على التعظيم وتنبئ عن التبجيل، فالصلاة قد جمعت كل هذا في كل ما يكتنفها من حركات وسكنات، بل تزيد على ما تقدم من حركات عامة الناس أنها تكون صادرة من القلب مهيمنة على الجوارح، فالمصلي (يتصور عظمة ذلك الإله، يتصور مدى علمه، وأنه يعلم الجهر وما يخفى والسر وأخفى، وأنه يعلم ما توسوس به نفسه، وأنه اقرب إليه من حبل الوريد، عندما يتصور المصلي ذلك، يستشعر في نفسه الرهبة لذلك الإله العليم، وأنه لا بد له على ضوء تصوراته تلك. من أن ينقي لا سلوكه فقط، بل يجب عليه أن ينقي وينظف تصوراته وأفكاره أيضاً من الانحرافات، خشية أن يطلع الله على ذلك

(١) الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٣٣/٢.

منه^(١). فيكون التعظيم والتقدیس لله سبحانه في أكمل وسيلة فعالة لتطهر ظاهر الإنسان وباطنه.

ثالثاً: الصلاة وسيلة فعالة لمحو الخطايا، طالما أن بني الإنسان خطاؤون، ما خلا من عصم الله تعالى، وأن الخطائين مذنبون، لهذا فضلاً من الله سبحانه وكرماً منه، فرض الصلاة خمس مرات في النهار والليل لمحو الخطايا التي تتكرر بتكرر الأيام والأشهر والسنين، قال رسول الله (ﷺ): (أرأيتم لو أن نهراً على باب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، فهل يبقى في بدنه من درنه شيء؟ ، قالوا: لا، قال (ﷺ): كذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا)^(٢).

وحديث الصحابي الجليل سلمان الفارسي عن رسول الله (ﷺ): (إنه كان معه تحت شجرة فأخذ منها غصناً يابساً، فهزه حتى تحات ورقه، ثم قال: يا سلمان ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: إن المسلم؛ إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما تحات هذا الورق، ثم تلا الآية الكريمة:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفَاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ

﴿١١٤﴾ (٣) (٤).

رابعاً: الصلاة غذاء روحي: الإنسان بطبيعة الحال مركب من الجسم والروح، فكما أن جسمه يحتاج إلى غذاء ينميه ويقويه ويمنحه من المناعة ما يقاوم به

(١) محمد جعفر شمس الدين ، الصلاة الإسلامية: ٤٩.

(٢) المجلسي ، بحار الأنوار . ٧٩ / ٣١٩ ، أحمد بن حنبل ، مسند أحمد: ٤٣٧/٥.

(٣) سورة هود: ١١٤، وفي تفسيرها، ظ: الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ١٥٧/٢٢. ومحمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢/١١.

(٤) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٤٣٧/٥.

الأمراض، فإن روحه كذلك تحتاج إلى غذاء ينميها ويقويها ويسمو بها إلى عالم الملكوت، وهذا الغذاء كامن في إقامة الصلاة، شأنها شأن بقية الواجبات.

إن القلق النفسي يفتك بالمجتمعات البشرية في الوقت الحاضر، وهو يزداد ضراوة يوماً بعد يوم، نظراً لتعدد الحياة وتشابك المشاغل ويسلك طريقة إلى القلوب في سهولة ويسر؛ لأن الطرق أمامه معبدة عدا الطرق المؤدية إلى قلوب المؤمنين المقيمين الصلاة، إذ مداخله أمام هذه القلوب مسدودة، لذلك فإن القلق لا يظفر بها، فإن تسرب منه شيء إليها، فإنه يذوب ويتلاشى أمام الإيمان المتولد من صلة الإنسان بربه في صلاته كل يوم^(١)، وذلك أن الإنسان المؤمن ينظر إلى ما بعد هذه الحياة الدنيا، فيكون فكره وهمه به فقط، فلا يحزن ولا يغتم لما توجه به بكل جوارحه إلى معبوده الخالق، وهو بهذا يغذي روحه ويتفاعل مع الصلاة بحضور القلب، يقول أمير المؤمنين علي(عليه السلام): (إن من أحب عباد الله إليه عبداً تخلى من الهموم إلاّ همماً واحداً انفرد به)^(٢)، أي لا يكون له هم وحزن سوى ما كان لأمر الآخرة، ف(لا يمكنه إدراك أهمية الصلاة إلا بعد أن يعتقد بفناء الدنيا، وزوال نعيمها المادي، ويتيقن من بقاء الآخرة ودوامها، ثم يعلم بأن الصلاة هي أفضل وسيلة للحصول على ذلك الثواب والنعيم الدائم)^(٣)، بما تغذيه في رح المصلي من إيمان وتوجه.

خامساً: إن القرآن الكريم حينما عرض للصلاة وهو يبرز أهدافها عرض لها من جهات متعددة، فقد عرض لها في موضع على أنها من أوصاف المتقين الذين

(١) ظ: نظام الدين عبد الحميد، العبادة وآثارها النفسية، مكتبة القدس، بغداد: ٥٥، ود. يوسف

القرضاوي، العبادة في الإسلام، مؤسسة بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٧٣م، ٢١٦.

(٢) نهج البلاغة، شرح محمد عبده: ١٥٢/١.

(٣) عبد الحسين دستغيب، صلاة الخاشعين، دار المعارف، بيروت، ٢٠٠٥م، ٣٥.

ينتفعون بهذا الكتاب الكريم، والذين كانوا بتلك الأوصاف على هدى من ربهم وكانوا هم المفلحين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُعْفُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَآخِزُونَ هُرُوقُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾^(١). فتعميق الصلاة لهذه الصفات لكونها (خطأً روحياً مباشراً بين الإنسان وبين الله)^(٢).

وعرض لها مرة على أنها عنصر من عناصر البر والحق الذي رسمه الله لعباده ودعاهم إليه، وجعله عنواناً على صدقهم في الإيمان، وعلى أنهم المتقون، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَاتِكُمُ وَآلِكُنْبِ وَالتَّيْبَعِنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَآلِيتِمَىٰ وَآلِ الْمَسْكِينِ وَآبَنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَآلْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّٰدِقِينَ فِي الْبَآسَاءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَآسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾^(٣)، فنلاحظ أن (الإيمان وإقامة الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، لأنهما ينبثق عنهما سائر التحليات المأمور بها)^(٤).

وعرض لها على أنها سبيل يؤهل القائمين بها أن يتآخوا في الدين ويتقرر لهم ما تفرضه الأخوة من حقوق وواجبات قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ

(١) سورة البقرة: ١-٥.

(٢) محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ١/١٥٨.

(٣) سورة البقرة: ١٧٧.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٢/١٣١.

فَأَخَوَاتِكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾^(١)، فنلاحظ أن المشركين بمجرد الإتيان بهذه الصلاة وإقامتها مع الركن الآخر، يكونوا إخوان المسلمين على الرغم من العداوة السابقة، فهذا (نص في أن أخوة الدين تثبت بهذين الركنين ولا تثبت بغيرهما من دونهما... وهل يتعارف الأخوان في الدين إلا بإقامة الصلوات في المساجد وسائر المعاهد)^(٢)، فهي عنوان للأخوة في المجتمع.

كما عرض لها على أنها عنوان للتمسك بالكتاب وسبيل للحصول على أجر المصلين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصَلِّينَ﴾^(٣) إلى غير ذلك من المواطن التي تقرر أن المقيم للصلاة كما أرادها الله والمتفاعل معها إنسان تتحقق فيه العناصر المكونة لشخصية الإنسان المؤمن، وإذا وجدت هذه الشخصية المؤمنة داخل المجتمع فإنها بالطبيعة تندفع نحو الخير والترابط والتعاون، إذ الإيمان الذي تؤسس له الصلاة وتثبته يتعامل بأوامر الإسلام القاضية بلزوم أخوة من يتماثل معها في الدين والعقيدة.

سادساً: الصلاة قوة جسمانية: إن الصلاة إذا أديت بأقوالها وأفعالها أداء صحيحاً كما كان يصلي الرسول (ﷺ)، فإنها ستكون خير تربية رياضية للمصلي، فهي أشبه بالتمرينات الرياضية التي تتدرب بها الفرقة الرياضية، وهي بهذا تقوم بتقويم جسم الإنسان وتجديد نشاطه والحركة الصلاتية عند التأمل فيها، نجد أنها تكفل للجسم الحد المعقول من الحركة التي تؤدي إلى حفظ حيويته، وتعمل على نموه إذ (إن

(١) سورة التوبة: ١١.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ١٧٤/١٠.

(٣) سورة الأعراف: ١٧٠.

الحركات الصلاتية تشمل الجسم كله، بحيث لا يبقى عضو فيه، إلا ينال قسطاً من الغذاء الحركي إذا صح التعبير^(١).

ونلاحظ الآثار الصحية أيضاً في مقدمات الصلاة الواجبة كالوضوء، وتأثيره الفسيولوجي، إذ الاغتسال بالماء على فترات معينة من اليوم الواحد يساعد على استرخاء العضلات، وتخفيف حدة التوتر النفسي والبدني، ولذلك أوصى (ﷺ) بالوضوء إذا غضب الإنسان، فإنه أوجب الوضوء للصلاة، فلا صلاة من دون وضوء، وإذا فقد الوضوء وجب التيمم بالصعيد الطاهر الطيب، ليكون موصول السبب بالوضوء^(٢).

سابعاً: إن الصلاة بمواعيدها المحددة وأسلوب أدائها المتميز بحركاته وأفعاله وأقواله، تدريب على حب النظام والالتزام به في جميع شؤون الحياة، كما يتيح الفرصة لنشأة أعراف سلوكية ذات شأن عظيم، بل أسلوب الدعوة إلى الصلاة، والذي نسميه الأذان يعطي صورة راشدة وكريمة للإعلام الإسلامي في أمثل ظواهره، وإذا تفاعل كل مسلم مع هذه الأمور حقق مثالية السلوك، إذ يمكنه أن يتعامل مع الأهداف الخاصة والمصلحة العامة بشكل مضبوط متزن لا يضيع معه هدف الفرد ولا تضيق معه مصلحة الجماعة.

(١) محمد جعفر شمس الدين، الصلاة الإسلامية: ٣٣، وظ: د. نظام الدين عبد الحميد، العبادة وآثارها النفسية: ٥٤.

(٢) ظ: عفيف عبد الفتاح طيارة، روح الصلاة في الإسلام: ١٣٧، وذكر الشيخ باقر شريف القرشي مجموعة من أقوال الأطباء المختصين عن فوائد الصلاة الصحية، ظ: النظام التربوي في الإسلام: ٣٣٣.

وإذا عاش المجتمع بهذا الأسلوب من السهل أن يتحد أفراده ويتعاونوا في تحديد معالم الأهداف العامة ويحققوها بالنظام والالتزام مع مراعاة الأهداف الخاصة، وذلك من خلال توعية راشدة ودعوة كريمة تطرح على الأفراد مراعيًا فيها ظروف المجتمع والأفراد سواء بسواء.

والصلاة بهذا المعنى لا تخلو من روح النظام العسكري، فالطاعة والنظام اللذان يتعلمهما الجندي تستمدان قوتها من قانون التربية العسكرية، فالجندي يجب أن يطيع قائده وعليه أن ينفذ أوامره في كل ما يصدر إليه من حركات ينبغي عليه أن يؤديها أو أعمال يجب عليه تنفيذها أثناء القيام بالواجب، شريطة أن يكون ذلك في طاعة الله تعالى.

وأبرز مثال على هذه التربية يظهر عن (طريق صلاة الجماعة التي ينبغي على المصلي أن يؤديها في صفوف مستقيمة وحركات منتظمة وبكيفية خاصة، فهو يعرف أنه إذا لم يستوف صلته في صفوف منتظمة، فإن الله لا ينظر إليه)^(١)، فبهذا العمل العبادي للخالق سبحانه الذي يعلو شأنه شأن القائد الأعلى كما هو حال التنظيم العسكري. يقول السيد محمد باقر الصدر: (فكما تنمي وترسخ روح الطاعة والارتباط في نفس الجندي خلال التدريب العسكري، بتوجيه أوامر إليه وتكليفه بأن يمتثلها تعبدًا، وبدون مناقشة، كذلك ينمي ويرسخ شعور الإنسان العابد بالارتباط بربه بتكليفه بأن يمارس هذه العبادات بجوانبها الغيبية انقيادًا واستسلامًا)^(٢).

(١) د. يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام: ٢٢٤.

(٢) نظرة عامة في العبادات: ٥٣.

ونفس الثمار نقتطفها من صلاة الجمعة أيضاً (ف) ما النهي عن البيع في وقتها إلا لتحقيق غرض أسمى وهو اجتماع المسلمين في عبادة جماعية تدر عليهم بنفع معنوي لا يُقدّر بثمن، بحيث لا قيمة لما يربحونه من أعمال تشغلهم عن هذا المكسب العظيم^(١).

ثامناً: ومن آثار الصلاة على الإنسان المسلم أنها من أسباب استقامته وصلاح أخلاقه، وسلامة قلبه وروحه وعقله، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِابْتِغَاءِ مَوَاقِفٍ حَسَنَةٍ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)، فالصلاة في الحقيقة طاعة لله تعالى، والله سبحانه لا يأمر بالفحشاء والمنكر، بل هو تعالى ينهى عنهما، لذا كان لزاماً على العبد المطيع لأمر مولاه أن يكون بعيداً عن الفحشاء والمنكر منتهياً عنهما، والصلاة مظهر من مظاهر الطاعة والانقياد لله تعالى^(٣)، يقول سيد قطب عن الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر: (فهي اتصال بالله يخجل صاحبه ويستحي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليقلى الله بها، وهي تطهر وتجرد لا يتسق معها دنس الفحشاء والمنكر)^(٤).

ونلاحظ أثر الصلاة النفسي في واقع الإنسان وبناءه الاجتماعي أن يبدأ الإنسان بالتأمل والتطهير الفردي، ويمتد ليشمل النزعة الجماعية التي تشيعها الصلاة في صلوات الجماعة والاجتماع لها في المساجد في الأيام العادية وفي المناسبات، مما

(١) لجنة التأليف، دليل الحياة في القرآن الكريم، ص ٧٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٣) ظ: الرازي، مفاتيح الغيب: ٦٤/٢٥.

(٤) في ظلال القرآن: ٢٧٣٨/٥.

يعمق المفهوم الاجتماعي لهذه الشعيرة الهامة من شعائر الإسلام^(١)، (ف) ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي لا تحتل الصلاة من برامجه التعليمية والثقافية والإعلامية مكاناً يليق بأهميتها في دين الله، وفي حياة المسلمين^(٢).

ونلاحظ أن السنة الشريفة توضح أثر الصلاة على الإنسان، فالقرب منه سبحانه يبعد عن الفحشاء والمنكر، والعكس صحيح أيضاً، فالإنسان القريب من الفحشاء والمنكر بالتالي هو بعيد عن الله تعالى، وأن صلاته شكل لا مضمون فيها، يقول النبي ﷺ: (من لم تنته صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً)^(٣)، وعن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) قال: (من أحب أن يعلم أقبلت صلواته أم لم تقبل؟ فلينظر هل منعت صلواته عن الفحشاء والمنكر وبقدر ما منعه قبلت منه)^(٤).

فالصلاة وسيلة فعالة لتحسين خلق الإنسان المسلم والوصول به إلى الطهارة والنقاوة، فهي تحصنه من رذائل الأخلاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣﴾^(٥)، فنلاحظ أن أول ما يذكر القرآن المجيد في ردع هذه الآفات الخلقية استثناء الإنسان

(١) د. احمد محمد فارس، النماذج الإنسانية في القرآن الكريم، دار الفكر العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م، ص٦٤.

(٢) د. يوسف القرضاوي، ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، ص٥٣.

(٣) المجلس، بحار الأنوار: ١٩٨/٧٩.

(٤) المصدر نفسه: ٢٠٤/١٦.

(٥) سورة المعارج: ١٩ - ٢٣.

المرتبط بالله تعالى، وذكر أول عامل ردع عبادي هو الصلاة لشرفها ومنزلتها وفعاليتها في الإنسان المقيم لها^(١).

ويرى الباحث أن للصلاة أهدافاً وآثاراً على الإنسان مما لا يحصى مجاله، وقد توسع العلماء في آثارها الظاهرية^(٢). ولا غرو أن تبعث الصلاة على الإستقامة الشاملة، وهي تربط الإنسان بربه فيستشعر عظمته ومراقبته له واطلاعه عليه، وإحاطته بسره وجهره، ثم هو موقف اختبار دائم من خلال هذه الصلاة التي هي الصلة بين العبد وربه، فلا بد أن يحرص العبد على سلامتها وحسنها، وذلك يقتضي أن تأخذ أثرها في شأنه كله قلباً وقالباً، وبالتالي فإن الصلاة تضي على المسلم (من تهذيب للأخلاق وتقويم للسلوك... وانقياداً لإرادة الله، وخشيته ومحبته سبحانه)^(٣)، ما يصلح حياته في علاقته بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بمن حوله من الأهل والأقارب والمجتمع عامة.

(١) للتوسعة في بيان المنهج القرآني في الردع والوقاية من الجريمة(الفحشاء والمنكر) ط: المؤلف،

المنظور القرآني في بناء الانسان، الفصل الثالث، المبحث الثاني ص ١٤٢.

(٢) ط: نظام الدين عبد الحميد، العبادة وآثارها النفسية: ٥٦، وعبد العزيز سيد الأهل، أسرار

العبادات في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٨١: ٦٧، ومرضى مطهري، التربية

والتعليم في الإسلام، مؤسسة الثقين، سوريا، ط ٣، ٢٠٠٣: ١٢٠، ومحمد جعفر شمس الدين،

الصلاة الإسلامية: ٤١، سعيد بن وهف القحطاني، منزلة الصلاة في الإسلام: ٢٠، وأحمد بن محمد

الحواشي، الصلاة الخاشعة، دار الطلبة للنشر، الرياض، ١٤٢٤ هـ، وعبد الحسين دستغيب، صلاة

الخشعين، د. يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، ود. أحمد برج، أثر العبادات في وحدة

المجتمع الإسلامي، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، ٢٠٠٤.

(٣) فهد بن عبد الرحمن الرومي ، الصلاة في القرآن الكريم: ٣٨.

الفصل الثالث

فريضة الزكاة وأثرها في بناء الإنسان

(٨٢) الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

نمهد لهذا الفصل ومباحثه ببيان مفهوم الزكاة في اللغة والاصطلاح وعلى النحو

التالي:

أولاً: الزكاة في اللغة والاصطلاح:

١- في اللغة: النماء والصلاح، يقال: زكا المال إذا زاد. وزكا الزرع أي طال ونما^(١)، وهو الطهارة والنماء والبركة^(٢)، وقيل هي الزيادة^(٣).

٢- في الاصطلاح: اسم لقدر مخصوص من مال مخصوص يجب صرفه لأصناف مخصوصة من الناس، وسميت بذلك لأن المال ينمو ببركة إخراجها، ولأنها تظهر مخرجها من الإثم^(٤).

المبحث الأول: رؤية عامة في الزكاة

أولاً: حكم زكاة الأموال وأدلة فرضها:

الزكاة فريضة الله تعالى على كل مسلم ملك نصاباً من ماله بشروط^(٥)، فرضها الله سبحانه في كتابه الحكيم، ومن أدلة فرضها في القرآن المجيد قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا

(١) ظ: ابن منظور، لسان العرب: ٣٦/٢.

(٢) ظ: الرازي، مختار الصحاح: ٢٧٣.

(٣) ظ: الجرجاني، كتاب التعريفات: ٩٤.

(٤) ظ: محمد الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، مطبعة ألبابي الحلبي وأولاده، مصر، ١/١٩٥٨/٣٦٨.

(٥) ظ: علي الحسيني السيستاني (رحمته الله)، منهاج الصالحين: ٣/٣٧٣. ود.علي محمد العماري، الزكاة فلسفتها وأحكامها: ٧٤.

الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾^(٢)، والمعنى: أن الذين لا يخرجون ما يجب عليهم من أنواع النفقات الواجبة في المال، ومنها الزكاة، جزاؤهم هذا العذاب الأليم، وهذا يدل على وجوب إخراج الزكاة بصفقتها جزءاً من الحق الذي يجب في المال^(٣). وفي السنة الشريفة قال النبي (ﷺ) لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: (...أعلمهم أن الله أفترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)^(٤).

ثانياً: منزلة الزكاة:

جاء ذكر الزكاة قرابة إحدى وخمسين آية في القرآن المجيد، وكثير ما جاءت مقرونة بالصلاة للأهميتها فلا تقبل إلا بها، وقد نوه الرسول (ﷺ) بذكرها بين الأمر بها والنهي عن تركها، وثواب فاعلها وعقوبة تاركها ومقاديرها ومصارفها في عشرات الأحاديث، ومن الآيات الآمرة بها قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾^(٥)، وهي وصية الله تعالى لرسوله حيث قال لعيسى (ﷺ):

(١) سورة المزمل: ٢٠.

(٢) سورة التوبة: ٣٤

(٣) ظ: الرازي، مفاتيح الغيب: ٤٠/١٦.

(٤) البخاري، صحيح البخاري: ١٠٨/٢.

(٥) سورة البقرة: ٤٣.

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾^(١)، يقول الرازي:
(والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان في الأرض وحين رفع إلى السماء
وحين ينزل مرة أخرى)^(٢).

وتكمن منزلة الزكاة أيضاً في كونها وصية الرسل لأتباعهم إذ قال تعالى: ﴿ وَأذْكُرْ
فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾^(٣) وكان يأمر أهله بالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ
مَرْضِيًّا^(٤) يقول السيد الطباطبائي: (المراد بأهله خاصته من عترته وعشيرته
وقومه كما هو ظاهر اللفظ)^(٥). والزكاة هي مصداق الإيمان والفيصل بين الإخوة
الإسلامية، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ
وَنُقِصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾^(٦)، ومن المعلوم منزلة عبادة فريضة الصوم وفريضة
الحج، إلا أن الباحث يلحظ في هذه الآية التأكيد في هذا المقام الأخوة مع التائبين من
المشركين وكف القتال، على الاكتفاء (باشترط الركنتين الأعظمين وهما الصلاة التي
تجب خمس مرات في كل يوم وليلة، وهي الرابطة الدينية الروحية الاجتماعية بين

(١) سورة مريم: ٣١.

(٢) مفاتيح الغيب: ١٨٤/٢١ ، وبهذا لا يصح ما نقله الألويسي عن ابن عطاء الله (من أن لا زكاة
على الأنبياء عليهم السلام)، لأن الله تعالى نزههم عن الدنيا فما في أيديهم لله تعالى، ولذا لا يورثون أو لأن
الزكاة تطهير وكسبهم طاهر)، روح المعاني، ٥٤٢/١٦.

(٣) سورة مريم: ٥٤ - ٥٥.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ٥٤/١٤، وظ: ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم: ١٣٠/٣ ، وقيل على
جانب ما ذكر، أن المراد بأهله أمته، وهذا رأي الحسن البصري، والباحث يرى أن لا دليل عليه، ظ:
الطبرسي، مجمع البيان: ٣٢١/٦، البغوي، معالم التنزيل في حقائق التأويل، ٣٦٤/٣.

(٥) سورة التوبة، الآية ١١.

المسلمين والزكاة وهي الرابطة المالية السياسية الاجتماعية، ومن أقامهما كان أجدر بإقامة غيرهما^(١).

ونلاحظ أيضاً منزلة الزكاة في أن الهداية لا تتحقق إلاّ بإيتائها كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾^(٢)، وذلك أنّ الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر لا يكفي أن يكون مجرد ادعاء فحسب، بل تؤيده الأعمال الكريمة، فعلاقة الإنسان بالله تعالى ينبغي أن تكون قوية محكمة، وأن يؤدي صلاته بإخلاص، (كما ينبغي أن تكون علاقته بعباد الله وخلقه قوية، فيؤدي الزكاة إليهم)^(٣)، ويؤكد السيد الطباطبائي منزلة فرع الزكاة في هذا المقام بقوله: (ومن كان تاركاً للفروع المشروعة في الدين وخاصة الركنتين: الصلاة والزكاة فهو كافر بأيّات الله لا ينفعه مجرد الإيمان بالله واليوم الآخر وإن كان مسلماً، إذا لم ينكرها بلسانه، ولو نكرها بلسانه أيضاً كان كافراً غير مسلم، وقد خص من بينهما الصلاة والزكاة بالذكر لكونهما الركنتين اللذين لا غنى عنهما في أي حال من الأحوال)^(٤).

فتحقق كل الشروط الخمسة المزبورة في الآية الكريمة في الإنسان وكونها صفة لازمة له، فحصول الاهتداء، مرجو والعاقبة عند الله سبحانه معلومة، وربما لهذا

(١) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار : ١٠/١٥٩.

(٢) سورة التوبة: ١٨.

(٣) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥/٣٨٤.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ٩/١٧٦.

السبب، قال ابن كثير: (وكل عسى في القرآن فهي واجبة)^(١)، فالنتيجة في الزكاة مما يتحقق فيه الهداية للإنسان، وهذا من منزلتها العظيمة في الدين الإسلامي.

وإيتاء الزكاة سبيل الرحمة الإلهية كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢)، فالآية الكريمة ذكرت فيما ذكرت إيتاء الزكاة في سبيل استحصال رحمة الله تعالى على الإنسان والرحمة المرجوة تتحقق في الدارين الدنيا والآخرة، وأن الزكاة من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها فاعلها، يقول ابن عاشور: (وقد جمعت هذه الآية جميع الأعمال الصالحات فأهمها بالتصريح وسائرهما بعموم حذف المتعلق بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، أي: في كل ما يأمركم وينهاكم. ورتب على ذلك رجاء حصول الرحمة لهم، أي في الدنيا بتحقيق الوعد الذي من رحمته الأمن وفي الآخرة بالدرجات العلى)^(٣). وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٤)،

نلاحظ أن القرآن المجيد ذكر جملة أوصاف المؤمنين المشمولين بالرحمة الإلهية هي وصفهم بأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، والتأكيد على هاتين الصفتين مع ذكر ذلك لأنهما (الركنان الوثيقان في الشريعة فالصلاة ركن العبادات التي هي الرابطة بين

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣٤٤/٢. ولم يذهب إلى هذا المعنى الزمخشري، إذ قال: (إن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار خشية والتقوى، اهتداؤهم دائر بين عسى ولعل)، الكشاف: ٢٤٣/٢.

(٢) سورة النور: ٥٦.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٣٢/١٨.

(٤) سورة التوبة: ٧١.

الله وبين خلقه، والزكاة في المعاملات التي هي رابطة بين الناس أنفسهم^(١). ولهذا استحق الموصفون بهذه الأوصاف الرحمة الإلهية (أَوْلَيْكَ سَيِّرَهُمُ اللَّهُ)، وهذا (إخبار عما في القضاء الإلهي من شمول الرحمة الإلهية لهؤلاء القوم الموصوفون بما ذكر)^(٢). ومن جملتها وصف إيتاء الزكاة الموجبة للرحمة الإلهية.

وبكلمة.. الزكاة عنوان الفلاح للإنسان في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ

الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾^(٣)، وذكر صفة أداء الزكاة مما يتحقق به الفلاح الذي هو (الظفر وإدراك البغية...)^(٤) في السعادات الدنيوية والأخروية.

والزكاة من محاسن هذا الدين تؤكد روح التراحم والتعاطف والتعاون بين المسلمين وتزيل الأحقاد بين الأغنياء والفقراء، وهي طهارة للمال من الأدران ونماء وبركة وحفظ له من الآفات كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٣﴾﴾^(٥)، وخلاف ذلك من المنع وعدم التزكية يكون المال ناراً على صاحبه يوم القيامة يكوى بها، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٩٧/٩.

(٢) المصدر نفسه، ٢٩٧/٩.

(٣) سورة المؤمنون: ١-٤، ويرى الراغب أن المراد من فاعلون (أي: يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله، أو ليزكوا أنفسهم، والمعنيان واحد)، مفردات ألفاظ القرآن: ٣٨، والحال أن المراد ظاهراً هو تزكية المال كما ثبت.

(٤) الراغب الاصفهاني، مفردات الفاظ القرآن، ص ٦٤٤.

(٥) سورة التوبة: ١٠٣.

كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ

لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾ (١). وكل مال لم تخرج زكاته فهو كنز استحق

صاحبه هذه العقوبة، وهو أمر لا يختص بالرهبان والأخبار كما توهم البعض (٢)، إذ

إن (اللفظ مطلق فيجب جريانه على إطلاقه وعمومه) (٣)، فهي تعني المسلمين وغيرهم

ممن يكتنون الذهب والفضة (المال) من غير أن يؤديوا زكاتها، تكون العاقبة جهنم

وبئس المصير، وهذا العذاب الأليم ليس جزاءهم في يوم القيامة فحسب، بل يشملهم

في الدنيا لإرباكهم الحالة الاقتصادية ولإيجاد الطبقة بين الناس، وإذا لم يكن أهل

الدنيا يعرفون أهمية هذا الدستور الإسلامي بالأمس، فنحن نستطيع أن ندركه جيداً،

لأن الأزمات الاقتصادية التي أبتلي بها البشر نتيجة احتكار الثروة من قبل جماعة

(أنانية)، وظهورها على صورة حروب وثورات وسفك دماء، غير خاف على أحد

أبدأ (٤).

(١) سورة التوبة: ٣٤.

(٢) ذهب معاوية بن أبي سفيان إلى الكنز الخاص بالرهبان والأخبار فقط ، وكان من أشد

المعارضين له الصحابي أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه)، وقد وقع خلاف شديد بينهما جراء الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر الذي بادر به أبو ذر، ويرى الباحث أن أبا ذر كان ناظراً في عدم الكنز مطلقاً

إلى سوء الوضع الاقتصادي للمسلمين آنذاك وحرمة الاكتناز، للتوسعة في موقف أبي ذر، ظ:

الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ١٠/١٣٩، الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٩/٢٢٧.

(٣) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار: ١٠/٣٥٨.

(٤) ظ: ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٦/٢٨.

ولعل هذا السبب الذي من أجله كانت الزكاة مقدمة على غيرها من العبادات المفروضة الأخرى كالحج مثلاً - وان توفر شرط الاستطاعة فيه -، فنلحظ خطرها في كونها دين في ذمة الإنسان المسلم لا بد من إيفائه^(١).

المبحث الثاني: موارد صرف الزكاة وثمارها:

أولاً: موارد صرف الزكاة:

الزكاة من أهم موارد بيت مال المسلمين، ولها دور مهم في بناء الإنسان الروحي، فهي عبادة تجمع بين الطاعة لله سبحانه ونفع الآخرين، وهي من العبادات العملية التي يتقرب بها إلى الله تعالى من خلال الناس ف(كلما جاء سبيل الله في الشريعة أمكن أن يعني ذلك تماماً سبيل الناس أجمعين، وقد جعل الإسلام سبيل الله أحد مصارف الزكاة، وأراد به الإنفاق لخير الإنسانية ومصالحتها)^(٢).

ونلحظ أن الله تعالى حصر صرف الزكاة في آية واحدة وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَّاتِ فُلُوهُنَّ فِي الرِّقَابِ وَالْغَدِيرِمْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾^(٣)، وهذا الذكر لمستحقيها لا

(١) ظ: محمد جواد مغنية، الفقه على المذاهب الخمسة، دار الغدير، قم المقدسة، ٢٠٠٩م، ص ٢٠٦.

(٢) محمد باقر الصدر، نظرة عامة في العبادات: ٣٩.

(٣) سورة التوبة: ٦٠.

مبرر له إلا إن المراد منه التقيّد والحصر لهم دون سواهم، وكذلك - كما يراه الرازي - بأن المراد منه الزجر عن مخالفة هذا الظاهر^(١).

وبهذا تكون مواردها ثمانية وعلى النحو الآتي:

١. الفقراء: وهم المحتاجون.

٢. المساكين: وهم الأشد من الفقراء، ويرى الباحث أن الطبري قد جانب الصواب في قوله بأن المسكين: (هو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم)^(٢). فالمسكنة وإن كانت لازمة للفقير، لكنه ليس معناها الذل والهوان، فإنه ربما كان غني النفس أعز من الملوك الأكابر. وقد اختلف المفسرون في أيهم أشد حاجة الفقير أم المسكين^(٣)، ويرى الباحث أن الصواب فيما قاله الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (الفقير الذي لا يسأل، والمسكين هو أجهد منه الذي يسأل)^(٤). وهذا قريب من كلام الطبري؛ إلا أنه ليس فيه (المتذلل).

٣. العاملون عليها: وهم جباتها الساعون في جمعها ثم تفريقها، فهؤلاء وإن كانوا أغنياء يُعطون منها جزاء لعملهم، فمن يعمل في الجهاز الإداري والفني لشؤون الزكاة

(١) ظ: مفاتيح الغيب: ٨٤/١٦.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن: ١٨١/١٠.

(٣) للتوسعة في هذه الآراء، ظ: البغوي، معالم التنزيل: ٤١/٣، والطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ١٨١/١٠، والطبرسي، مجمع البيان: ٥٦/٥، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: ٤٣٢/١٠، ويرى الباحث أن سبب هذا الخلاف عائد إلى أن هذا المورد الوحيد الذي جمع بين لفظي (فقير، ومسكين).

(٤) الكليني، الكافي: ٥٠٢/٣.

من جباية أو أي أشخاص آخرين يقومون بأعمال جمع الزكاة وصرفها في مواردنا تحت إشراف ديوان الزكاة فهؤلاء لهم نصيب منها.

وهذا العمل خاص بعامة الناس ما خلا الهاشميين فهم لا يكفون بالعمل عليها حتى لا يُعطون منها فهي محرمة عليهم، يقول محمد رشيد رضا: (لا تجوز العمالة لمن تُحرم عليهم الصدقة من آل الرسول (ﷺ) وهم بنو هاشم بالاتفاق وكذا بنو المطلب ودليله أن الفضل بن عباس والمطلب بن ربيعة بن عبد المطلب سألا النبي (ﷺ) أن يؤمرهما على الصدقات بالعمالة كما يأمر الناس فقال لهما: (إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس)^(١)).

فإذا كان بنو هاشم لا يُعطون من الزكاة والصدقات، وفرض لهم العطاء من الخمس فقط، فكيف نوفق بين هذه المسألة وبين تقييد الخمس الوارد في قوله تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ

السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ الْأَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾^(٣) بغنائم الحرب فقط كما ذهب إلى ذلك جملة من المفسرين^(٤)، ومن

المعلوم ان غنائم الحرب محدودة فلا يعيش الإنسان حياته في حروب وسلب وغنم

(١) أحمد بن حنبل، مسند أحمد: ١٦٦/٤، ومسلم، صحيح مسلم: ١١٨/٣.

(٢) تفسير المنار: ١٠٤٣٥، وظ: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٣٦٧/٢، أما إذا كان دافع الزكاة هاشمياً فيجوز أن يكون مصرف الزكاة للهاشمي بأن يكون من العاملين عليها مثلاً، ظ: السيد علي الحسيني السيستاني، منهاج الصالحين: ٣٧٠/١.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٤١.

(٤) ظ: الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ٦/١٠، الرازي، مفاتيح الغيب، ١٣٢/١٥، ابن

كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣١٣/٢، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٠١/٩.

ومع وقوع الحروب لا يمكن استيفاء حاجات بني هاشم مع تعدد طبقاتهم من غنائم الحروب فقط!!

يوضح السيد محسن الأمين (ت ١٣٩٠هـ) سبب هذا الحرمان من الزكاة والعوض البديل عنه لبني هاشم في قوله: (وحرمة الصدقة على النبي وأهل بيته تنزيه عظيم لهم من الأوساخ أما انه تنزيه من ريبة فلا. والنقصان الذي يلحقهم بحرمانهم من الزكاة نقصان مالي لا نقصان أدبي فجبر بالخمس)^(١). كما إن دفعه لهم (يستبطن التعبير عن الاعتقاد بأحقيتهم ومظلوميتهم، كما يعبر في الوقت نفسه عن (الولاء): عن الحب والود والوفاء بالعهد والميثاق والنصر لهم بالمال)^(٢).

وأما الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها جامع الزكاة فنلاحظها في وصايا الإمام علي (عليه السلام) لأحد عماله العاملين على جمع الزكاة، جاء فيها بعد مقدمة أخلاقية عالية: (... ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته، لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه، فإن قال قائل: لا، فلا تراجع...)^(٣).

٤. **المؤلفة قلوبهم:** هم الذين كانوا قد دخلوا الإسلام حديثاً لتقوية قلوبهم، ويراد تأليف قلوبهم بالاستمالة إلى الإسلام أو التثبيت عليه أو لكف شرهم عن المسلمين، أو رجاء نفعهم للدفاع عنهم.

وقد ذهب جملة من المفسرين إلى سقوط سهم المؤلفة قلوبهم، مبررين ذلك بأن علة التشريع برأيهم قد انتفتت، ولا يخشى على الإسلام منهم، ولا حاجة له بهم، إذ

(١) الشيعة بين الحقائق والأوهام، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط ٣، ١٩٧٧م، ص ٤٢٥.

(٢) محمد باقر الحكيم، دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، ١/٤٢٤..

(٣) نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد: ١٥/١٥١.

أعز الله الإسلام، فله الحمد، وأغناه أن يتألف عليه رجالاتاً، فلا يُعطى مشرك تأنفاً بحال^(١). واستدلوا بعمل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في منع المؤلفات قلوبهم في زمن الخليفة الأول، وبهذا يكون نسخاً لهذا السهم^(٢).

ويرى الباحث أن سهم المؤلفات قلوبهم فريضة من الله تعالى كالزكاة، فريضة منه سبحانه وأن (تقسيمها إلى الأصناف الثمانية أمر مفروض من الله لا يتعدى عنه، على خلاف ما كان يطمع فيه المنافقون في لمزهم النبي ﷺ)^(٣). ولا يصح النسخ بقول الصحابي^(٤).

وإجمالاً يرى الرازي: (أن هذا غير منسوخ وأن للإمام أن يتألف قوماً على هذا الوصف، ويدفع إليهم سهم المؤلفات لأنه لا دليل على نسخه البتة)^(٥). وكذلك يرى الآلوسي عدم سقوط هذا السهم، وأما ما أحتجوا به في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن

(١) البغوي، معالم التنزيل: ٢/٣، ظ: الزمخشري، الكشاف: ٢/٢٧٠، البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢/١٩٠.

(٢) وذلك أن بعضهم طلب من أبي بكر ما كان أعتاد أخذه في زمن النبي ﷺ (فكتب بذلك خطأ فمزقه عمر، وقال: (هذا شيء يعطيكموه رسول الله ﷺ) تأليفاً لكم، فأما اليوم فقد أعز الله تعالى الإسلام وأغنى عنكم فإن ثبت على الإسلام وإلا فبيننا وبينكم السيف، فرجعوا إلى أبي بكر فقالوا: أنت الخليفة أم عمر؟ بذلت لنا الخط، ومزقه عمر، فقال هو إن شاء)، محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ١٠/٤٣٧، وظ: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٩/٢٧٥، سيد سابق، فقه السنة، دار الكتاب العربي، بيروت: ١/٣٨٩.

(٣) محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن: ٩/٢٧٥، وإلى هذا الرأي، ظ: الطبري وجامع البيان عن تأويل القرآن: ١٠/١٨٥، والقاسمي، محاسن التأويل: ٥/٢١٢٨.

(٤) ظ: محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ١٠/٤٣٧.

(٥) مفاتيح الغيب: ١٦/٨٩.

رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴿١﴾، قال: (فإنه إنما يتم لو ثبت نزول هذه الآية بعد هذه ولم يثبت) (٢).

ومن ثمار هذا السهم ما نقله الطبري عمَّن كان يعطيهم رسول الله (ﷺ) قوله: (لقد أعطاني رسول (ﷺ) وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ) (٣).

٥. في الرقاب: أي في فك الرقاب، بأن يشتري عبداً ويعتقهم أو بأن يُعين العبد على إعتاق نفسه، ونلاحظ هنا أنه استبدل حرف اللام في (للفقراء والمساكين) إلى حرف (في) في قوله تعالى (في الرقاب)، وفي هذا الاستبدال يقول الرازي: (فلا بد لهذا الفرق من فائدة، وتلك الفائدة هي أن تلك الأصناف الأربعة المتقدمة يُدفع إليهم نصيبهم من الصدقات حتى يتصرفوا فيها كما شاءوا، وأما (في الرقاب) فيوضع نصيبهم في تخلص رقبتهم عن الرق، ولا يُدفع إليهم ولا يُمكنوا من التصرف في ذلك النصيب كيف شاءوا، بل يوضع في الرقاب بأن يؤدي عنهم) (٤).

وبهذا يمكن صرف الزكاة في فك أسر المسلم من رق الكافر (٥). وقد ذهب بعض المفسرين إلى أوسع من فك أسرى المسلمين، فأجاز أن يُنفق في تحرير الشعوب

(١) سورة الكهف: ٢٩.

(٢) روح المعاني: ٤٣٧/١٠، وظ: الطبري، جامع البيان في تأويل أي القرآن: ١٨٥/١٠.

(٣) الطبري، جامع البيان في تأويل أي القرآن: ١٨٤/١٠.

(٤) مفاتيح الغيب: ٩٠/١٦، وظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٧٥/٩.

(٥) ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٧٤/٩، وابن العربي: أحكام القرآن:

المستعمرة من هذا الصرف على اعتبار أنهم بمنزلة الأرقاء الذين ينبغي تحريرهم^(١)، وكل هذا من أجل فك الإنسان من نير العبودية بما تشكل هذه العبودية من آثار للقهر والتخلف وبجميع المجالات الحياتية، وهذا ما يفهم أيضاً من إمام الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، إذ يقول: (إن قسماً من الزكاة يخصص لمحاربة العبودية والرق وإنهاء هذه الحالة غير الإنسانية)^(٢).

٦. **الغارمون:** وهو المدين في غير معصية، ولا قدرة لهم لوفاء هذا الدين، ويقسم إلى قسمين: الدين في مصلحة النفس، كالدين في الإنفاق على أنفسهم وأبنائهم ونسائهم، والدين في المصلحة العامة، كالدين في الإصلاح بين الناس وما شابه^(٣).
ولسداد دين الغارم من أموال الزكاة شروطاً منها: أن يكون المرء في حاجة إلى ما يقضي عنه الدين، وأن يكون دينه في غير معصية، وأن يكون هذا الدين حالاً وقت سداده لا مؤجلاً، وأن يكون هذا الدين من الديون التي يحبس بها المرء فيخرج بذلك ما كان حقاً من حقوق الله تعالى من الكفارات والزكوات^(٤).

(١) ظ: محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ٥٤٥/١٠، ومحمد عبد القادر أبو فارس، إنفاق الزكاة في المصالح العامة، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣: ٢٨.

(٢) الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل: ٦٦/٦.

(٣) ظ: د. محمد أبو فارس، إنفاق الزكاة في المصلحة العامة: ٤٢.

(٤) للتوسعة في هذه الشروط، ظ: د. يوسف القرضاوي، فقه الزكاة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧،

٢٠٠٢: ٦/٢، والسيد علي الحسيني السيستاني، منهاج الصالحين: ٣/٣٧١.

وتعهد الشرع بسداد الدين عن المدينين تشجيعاً على القرض الحسن، لأنه يذهب الدين عن صاحبه بإفلاس المدين أو نحوه، فإن عجز المدين عن الأداء فيؤدي عنه من الزكاة^(١).

وقد أدخل بعض العلماء في سهم الغارمين، إعطاء أصحاب الحاجات من غير الغارمين على سبيل القرض الحسن، وقد عللوا ذلك بأنه إذا كان يجوز إعطاء الغارمين لسداد ديونهم من غير إرجاع، فمن باب أولى أن يعطى هذا المال لمن يردده، وهذا حسن^(٢).

٧. **في سبيل الله:** يندرج تحت هذا العنوان نفقات الجهاد، وإعداد الأسلحة، أو بناء المساجد والمراكز الدينية، وعلاج المرضى وتعليم الجاهل، فـ(سبيل الله هو التعبير التجريدي عن السبيل لخدمة الإنسان؛ لأن كل عمل من أجل الله إنما هو من أجل عباد الله)^(٣)، وهذا لأن الأصل في لفظ (في سبيل الله) حملة على عمومها إلا أن يرد ما يخصه.

وقريب من هذا الرأي ذهب الدكتور محمد أبو فارس في أن مصرف (في سبيل الله) ينفق في المصالح العامة، ولا يتوسع في إنفاقه في كل عمل بر وطاعة^(٤)، ولعل

(١) ظ: محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، القاهرة: ١٥٧. وأبو بكر الجزائري، منهاج المسلم: ٢٩٧.

(٢) ظ: يوسف القرضاوي، فقه الزكاة: ١٠٧/٢، د. محمد أبو فارس، إنفاق الزكاة في المصالح العامة: ٤٦.

(٣) محمد باقر الصدر، نظرة عامة في العبادات: ٣٩، وقد ذهب د. يوسف القرضاوي إلى خلاف هذا الرأي وخصص (في سبيل الله) بنصرة الله ومحاربة أعدائه، وهو مخصص لعموم اللفظ من غير دليل واضح، ظ: فقه الزكاة: ١٢٩/٢.

(٤) ظ: إنفاق الزكاة في المصالح العامة: ٨٨.

عدم التوسع هذا ناجم عن كثرة المال وقلته، وإلاّ الظاهر في كثرته السعة في أعمال البر.

يقول السيد علي الحسيني السيستاني (رحمته الله): (ويقصد به المصالح العامة للمسلمين كتعبيد الطرق وبناء الجسور والمستشفيات والمدارس الدينية والمساجد وملاجئ الفقراء ونشر الكتب الإسلامية المفيدة وغير ذلك مما يحتاج إليه المسلمون، وفي جواز دفع هذا السهم في كل طاعة^(١))، والظاهر إن أساس الإنشاء هو لصالح المسلمين لكونه قد انفق على هذا المشروع الخدمي من بيت مالهم، إلا إن وجه الانتفاع لا يقتصر عليهم بل ان استفاد منه الإنسانية بصورة عامة، يقول الشيخ محمد مهدي الآصفي: (إن الانتفاع من المرافق والخدمات العامة التي يصرف عليها من بيت المال ومن الزكاة لا يتوقف على فقر المنتفع وحاجته وإنما هي مرافق عامة لكل المنتفعين، لا تخص فئة خاصة منهم، مسلمين كانوا أم غير مسلمين، فقراء كانوا أم أغنياء، وذلك كالمال الذي يصرف من بيت المال في إقامة الجسور والسدود ومشاريع الريّ والمدارس والمستشفيات العامة وغير ذلك من المرافق والمؤسسات الاجتماعية^(٢))، وهذا بطبيعة الحال لا يخرج عن الأصناف الثمانية المفروضة في القرآن المجيد، إذ يبقى الحصر على دلالاته ولفظ (في سبيل الله) على عمومه في خدمة الإنسانية وبناءها.

(١) منهاج الصالحين: ٣/٣٧٢، وظ: محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ١٠/٤٤٤، سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ط: ٥، ١٣٥، في ظلال القرآن: ١٦٧٠/٣.

(٢) النظام المالي وتداول الثروة في الإسلام، المكتبة الإسلامية الكبرى، بيروت، ط ٣، ١٩٧٣م، ص ٧١.

٨. (وابن السبيل): هو الذي يكون في بلد لا يجد فيه المأوى والطعام، وله مال

في موطنه قد انقطع عنه، فيستحق من الزكاة بقدر حاجة العودة إلى وطنه^(١).
وقد ذهب جملة من المفسرين إلى جواز صرف نفقات من أراد أن ينشئ سفره من غير معصية إذا كان محتاجاً له من سهم ابن السبيل^(٢). ولا يرى الباحث ذلك لأن تعريف ابن سبيل لا يدخل فيه من أراد أن ينشئ سفرأً، ومجيء مصرف (ابن السبيل) في آخر آية الصدقات يدل على قلة حدوث ذلك، وبناءً عليه فإن مصرف (ابن السبيل) لا يتسع لكل من أراد أن ينشئ سفرأً لكثرتهم، ولشمول هؤلاء المحتاجين إلى السفر الابتدائي ضمن سهم الفقراء والمساكين.

وبهذا يكون صرف سهم (ابن السبيل) فقط للذين (تخلفوا في الطريق لعدة ما وليس معهم من الزاد والراحلة ما يوصلهم إلى بلدانهم أو إلى الجهة التي يقصدونها، حتى ولو لم يكونوا فقراء في واقعهم، ولكنهم افتقروا الآن نتيجة سرقة أموالهم أو مرضهم أو قلة أموالهم أو لأسباب أخر، ومثل هؤلاء يجب أن يعطوا من الزكاة ما يوصلهم إلى مقصدهم أو بلدهم)^(٣).

وبهذا يتضح من بيان هذه الأسهم الثمانية ممن يستحقون الزكاة. إن الزكاة أول تشريع منظم في سبيل بناء المجتمع عرفته البشرية وهو التكافل الاجتماعي، والغاية من ذلك تحقيق الكفاية لكل محتاج، والكفاية تكون في المطعم والملبس والمسكن وسائر حاجات الحياة لنفس الإنسان أو من يعولهم من دون إسراف أو تقصير.

(١) ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٧٤/٩ ، والقاسمي، محاسن التأويل: ٢١٢٥/٥.

(٢) ظ: الرازي ، مفاتيح الغيب: ٩٠/١٦. وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم: ٣٦٨/٢.

(٣) ناصر مكارم الشيرازي ، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ٦٦/٦.

ثانياً: ثمار الزكاة:

جاءت كثير من النصوص والآثار التي تبين فضائل هذه العبادة الجليلة على بناء الإنسان، منها:

أولاً: الامتثال لأمر الله تعالى بغض النظر عن أية فائدة أخرى، قال تعالى:

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّ لَيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ

تُرِيدُونَ وَجَهَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ (١).

ثانياً: الطهارة: وهي أنواع (٢):

١. طهارة لنفس الغني من البخل البغيض (لأن ذوي النفوس الضعيفة يتخذون المال غاية لا وسيلة وتصبح له سيادة على نفوسهم) (٣)، فهي علاج صالح لإزالة مرض حب الدنيا وعبادتها، وكسر شدة الميل إلى المال، إذ إن الإنسان يميل إلى

طغيان المال، قال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لِّيْقَى ﴿٦﴾ أَنْ رَّأَاهُ اسْتَقْبَى ﴿٧﴾ (٤).

٢. طهارة لنفس الفقير من الحسد نحو الغني الذي يكنز المال عن عباد الله

والذي قال تعالى بخصوصه: ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾

﴿٣﴾ (٥)، وفي الآية تشنيع على الذين يجمعون المال ويمنعون ما أمر الله تعالى (٦).

(١) سورة الروم: ٣٩.

(٢) ظ: د. يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام: ٢٥٨.

(٣) د. أحمد محمد فارس، النماذج الإنسانية في القرآن الكريم: ٤٥.

(٤) سورة العلق: ٦-٧.

(٥) سورة همزة: ٢-٣.

(٦) ظ: ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٣٠ / ٤٧٢.

٣. طهارة للمجتمع كلّهُ: أغنيائه وفقرائه، من عوامل التفرقة والصراع والفتن

والهدم، ولهذا قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾^(١).

٤. وطهارة المال، فالمال يبقى ملوثاً بحق الغير الذي تعلق فيه، ولا يتم تطهيره

إلاّ إذا خرج حق الغير منه كاملاً، قال الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام): (حصنوا أموالكم بالزكاة)^(٢).

فالزكاة تطهر الفرد من تلك الرذائل الأخلاقية والنفسية، وكذلك تطهر المجتمع من التلوث الذي يتولد نتيجة الفقر والتفاوت الطبقي الذي يؤدي إلى وجود طبقة محرومة من الامتيازات، وعليه سيقوى التكافل الاجتماعي في دفع الزكاة، وتنمو وتتطور عجلة الاقتصاد في ظل هذه الفريضة. يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء، ولو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولأستغنى بما فرض الله له، وأن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء)^(٣).

ثالثاً: الزكاة تساعد على تربية النفس عن طريق الشعور بآلام الآخرين، والإحسان إليهم والسعي في إيصال الخير إليهم، ودفع النكبات والآفات عنهم.

رابعاً: تساعد الزكاة على توفير محبة الفقراء للأغنياء، لأن الأنفاق يستدعي حبهم، مما يؤدي إلى الدعاء لهم بالخير والتوسعة، فيصير الدعاء سبباً لبقاء الإنسان

(١) سورة التوبة: ١٠٣.

(٢) الكليني، الكافي: ٦١/٤، وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله)، ط: المنقي الهندي، كنز العمال: ٢٩٣/٦.

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم:

في النعمة، يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (وحقيق على الله تبارك وتعالى أن يمنع رحمته من منع حق الله في ماله)^(١).

خامساً: الزكاة سبب من أسباب حصول الألفة والمودة بين المسلمين، وزوال الحقد والحسد الذي يسببه الفقر والتفاوت الطبقي في المجتمع، وبها يحافظ على هوية المسلم من الترهل والانحدار، يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (إن الله وعجل فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون إلا بأدائها وهي الزكاة، بها حقنوا دماءهم، وبها سُموا مسلمين...)^(٢).

سادساً: الزكاة رافع للبلاء عن الأمة، يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (إذا مُنعت الزكاة منعت الأرض بركاتها)^(٣)، ويقول أيضاً (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا تنزل أمتي بخير ما تحابوا وأدوا الأمانة وآتوا الزكاة، فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقحط والسنين)^(٤).

فالإنسان بفضل الزكاة يكون بمنجى من البؤس والحزن والهوان، وكانت الحياة كريمة على كل فرد في المجتمع، وكانت الزكاة حلاً يخفف من الأحقاد ويلطف من حدة الصراع ويحقق التآزر بين القادرين والعاجزين، والتاريخ يشهد أن المجتمع الإسلامي عن طريق الزكاة قد نجح في تحقيق السلام بين الطبقات، وتحقيق الكفاية للمحتاجين، وانعدمت صور الفقر والمسكنة في كثير من البلاد.

(١) المصدر نفسه: ٧/٢.

(٢) الكليني، الكافي: ٤٩٨/٣.

(٣) المصدر نفسه: ٥٠٥/٣.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار: ١٤/٩٣.

ففي عهد خلافة الإمام علي (عليه السلام) رأى (عليه السلام) رجلاً شيخاً كبيراً أعمى يستجدي الناس، فقال (عليه السلام): (ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين نصراني، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعموه! أنفقوا عليه من بيت المال)^(١)، فنلاحظ أن الإمام علي (عليه السلام) قال: ما هذا؟، ولم يقل: من هذا؟ فالسؤال كان عن وجود تسوّل في مدينة الكوفة مع أنها كانت تضم أربعة ملايين نسمة يومذاك.

ويلخص سيد قطب أثر الزكاة في النفس والمجتمع قائلاً: (والزكاة طهارة للقلب والمال، طهارة للقلب من الشح، واستعلاء على حب الذات، وانتصار على وسوسة الشيطان بالفقر، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء، وطهارة للمال تجعل ما بقي من بعدها طيباً حلالاً، لا يتعلق به حق، إلا في حالات الضرورة، ولا تحوم حوله شبهة، وهي صيانة للجماعة من الخلل الذي ينشئه العوز في جانب والترف في جانب، فهي تأمين اجتماعي للأفراد جميعاً، وهي ضمان اجتماعي للعاجزين، وهي وقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال)^(٢).

ولا شك أن الإنسان المتمدن في منظور القرآن المجيد هو الإنسان الذي لا يقتصر في كماله على الجانب المعنوي، من دون أن يضم إليه الكمال المادي والقدرة الاقتصادية التي تحفظ للأفراد كرامتهم وتسهل عليهم معاشهم وتمنحهم الرفاهة في العيش والحياة الهانئة، وإنما يدعو إلى مجتمع يتحسس أفراد السعة والرفاهية في العيش وتجاوز مرحلة الحد الأدنى إلى مرحلة الترتين بالنعم الإلهية والتمتع بالطيبات

(١) الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة، ٦٦/١٥.

(٢) في ظلال القرآن: ١٠/١٨.

من الرزق، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١). يقول الشيخ الطبرسي: (أي مما تستلذونه وتستطيبونه من الرزق)^(٢).

فالزكاة تنمية اقتصادية^(٣)، وبالتالي فهي علاج حقيقي للفقر، وترويض لمشاعر البخل والشح، ونتيجة ذلك الفلاح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤)، فد (الإنفاق يقي صاحبه من الشح المنهي عنه، فإذا يُسر على المرء الإنفاق فيما أمر الله به، وُقِيَ شح نفسه، وذلك من الفلاح)^(٥) في الدنيا والآخرة.

ومن الآثار الاقتصادية للزكاة تشجيع الناس على الاستثمار في أموالهم لئلا تأتي عليها الزكاة، وهذا ما يفسر قول النبي (ﷺ): (ألا من ولى بيتماً له مال فليتجر فيه لا يتركه حتى تأكله الصدقة - الزكاة -)^(٦)، لأن عدم استثمار المال إجمالاً يؤدي إلى

(١) سورة البقرة: ١٧٢.

(٢) مجمع البيان: ٣٤٥/١.

(٣) لموضوع التنمية الاقتصادية بحوث مختصة أشارت إلى أهمية فريضة الزكاة في هذا المجال، والآثار المترتبة عليها، للتوسعة ظ: بحوث مؤتمر الإسلام والتنمية، تحرير: فاروق عبد الحليم بدران، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، عمان، الأردن، ١٩٩٢، وعمر محي الدين، التنمية والتخطيط الاقتصادي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.

(٤) سورة التغابن: ١٦ ، وسورة الحشر: ٩.

(٥) ابن عاشور ، التحرير والتتوير: ٢٨/٢٥٩ ، وظ: القاسمي ، محاسن التأويل: ٩/٣٩٢٠.

(٦) الترمذي، سنن الترمذي: ٣/١٣٦، والمتقي الهندي، كنز العمال: ١٥/١٧٧. وذهب إلى وجوب الزكاة في مال اليتيم الفقيه الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، ظ: كتاب الأم، دار الفكر للنشر، بيروت، ٢، ١٩٨٣: ٣٠/٢، في حين لا يرى فقهاء الإمامية ذلك إلا إذا أُتجر بمال اليتيم، مستدلين بقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (ليس في مال اليتيم زكاة إلا إن يتجر به، فإن أُتجر به فالربح لليتيم فإن وضع

كنزه، وبالتالي إلى الركود الاقتصادي. يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر: (وعن هذا الطريق - أي الزكاة - ضمن الإسلام بقاء المال في مجالات الإنتاج والتبادل والاستهلاك، وحال دون تسله إلى صناديق الاكتناز والادخار)^(١).

كما أن عملية إعادة توزيع الثروة المتمثلة هنا في الزكاة من شأنها أن تقلل من حدة التفاوت في الدخل، وهو إجراء له تأثيره الكبير في علاج البطالة وزيادة الإنتاج، وزيادة فرص العمل لقطاع كبير من الناس^(٢)، ولعل إلقاء نظرة على الآية الكريمة التي تحدد مصارف الزكاة تؤكد لنا أنهم يشكلون قطاعاً كبيراً في المجتمع.

يقول الدكتور إبراهيم الطحاوي: (والزكاة من أكبر عوامل استثمار المال وتنميته وعدم اكتنازه، تلافياً لتلاشي رأس المال وتآكله، بدفع زكاته سنة بعد أخرى إذا لم يقم صاحبه بتنميته واستثماره، ومن ثم تدور العجلة الاقتصادية وتتسع ميادين العمل،

- خسر - فعلى الذي يتجر به)، الكليبي، الكافي: ٣/٥٤٠. وللتوسعة ط: أبو القاسم الخوئي، كتاب الزكاة، المطبعة العلمية، قم، ١٤١٣: ٦٤، ويرى الباحث أن عدم الوجوب في إخراج الزكاة من مال اليتيم لكون اليتيم غير مُكلف، وعلى كل الأحوال فإن جواز الاتجار بمال اليتيم على ما تقدم مما يحقق النمو الاقتصادي وعدم الركود.

(١) اقتصادنا، ص ٣٥٦.

(٢) ط: د. أحمد العسال، النظام الاقتصادي في الإسلام، مبادئه، وأهدافه، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧: ١١٨، ود. إبراهيم الطحاوي، الاقتصاد الإسلامي مذهباً ونظاماً، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٤: ٣٥٥، وفؤاد عبد الله العمر، نحو تطبيق معاصر لفريضة الزكاة، ذات السلاسل، للطبعة والنشر، الكويت، ١٩٨٤: ١١١.

وتكثر فرصه، ويزداد دخل الأفراد، ويرتفع مستوى المعيشة، ويقضي على البطالة، هذا فضلاً عن عظم أثر حصيلتها اجتماعياً بالنسبة لمجالات مصارفها الثمانية^(١).

إن هدف التنمية الأساس هو تحسين حياة البشر، فالإنسان هو نواة الجهد التنموي، وهو لب العملية التنموية، لذا يوليه الاقتصاد الإسلامي مكانته الواقعية، فيهدف إلى إصلاح معاش الأفراد، وتحسين مستواهم الاقتصادي والاجتماعي، بما يكفل الحياة الطيبة لهم وفقاً لمقاصد الشريعة. فعلى الإنسان أن يقوم بتخير كل ما من شأنه تحسين الظروف المعيشية على ضوء مفهوم الاستخلاف^(٢)، وتهدف كذلك التنمية الإسلامية إلى إقامة مجتمع يتمتع بأعلى مستويات المعيشة الطيبة، بإزالة جميع المصادر الرئيسية لبقاء التخلف منها الفقر والطغيان، وضعف الفرص الاقتصادية، وكذا الحرمان والقهر الاجتماعي والسياسي^(٣)، وتحقيق ذلك يكون بزيادة الإنتاج إلى أقصى حد ممكن، أي تحقيق الكفاية لكل إنسان في المجتمع بجهوده الخاصة أو عن طريق ميزانية الزكاة لمن يعجز عن تحقيقه بنفسه، وتحقيق الوفرة الاقتصادية إلى جانب الرفاهية الاجتماعية والسعادة الروحية، وبذلك يتحقق الهدف الأساسي للاقتصاد الإسلامي، وهو استخدام المنجزات الاقتصادية في نشر المبادئ والقيم الإسلامية.

(١) د. إبراهيم الحاوي، الاقتصاد الإسلامي مذهباً ونظاماً: ٣٥٦، وظ: د. أحمد العسال، النظام الاقتصادي في الإسلام: ٩٥.

(٢) ظ: محمد باقر الصدر، اقتصادنا: ٤١، جوادى آملی، الإنسان والدين: ٥٣، ود. عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة: ٢٤١.

(٣) ظ: نفس المصدر: ٣٣٢، محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي: ٢٠٥، محمد مهدي الآصفي، دور الدين في حياة الإنسان: ٤٢.

ولكن مما يبعث على الأسف إن بعض المجتمعات الإسلامية اليوم لم تهتم بهذه الفريضة الربانية، وإن أدت سائر العبادات المفروضة، فهي لا تحقق ثمار الاقتصاد الإسلامي الفذة، لأن الرسالة الإسلامية الكبرى لا (تُحقق كل أهدافها من جانب معين من جوانب الحياة، إذا طبقت في ذلك الجانب بصورة منفصلة عن سائر شعب الحياة الأخرى)^(١)، والزكاة (ليست مجرد إحسان موكول إلى إيمان الفرد وضميره، ولكنها ضريبة وعبادة يحرسها إيمان الفرد، ورقابة الجماعة، وسلطان الدولة)^(٢).

وبالتالي كان التخلف الروحي والاقتصادي، فكل ما نراه من فقر وبلاء وحاجة عند الناس، وظهور الطبقات بين المجتمع، طبقة فاحشة الغنى، وأخرى مدقعة في الفقر، وعصرنا الحاضر لهو أشد العصور حاجة إلى إقامة فريضة الزكاة والتمسك بتطبيقها حتى يتحقق البناء العبادي والنفسي والاجتماعي والاقتصادي للإنسان.

(١) محمد باقر الصدر، اقتصادنا: ٢٨٨ ، وظ: د. عبد الكريم زيدان ، أصول الدعوة: ٢٣٩.

(٢) د. يوسف القرضاوي، ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، ص ٥٣.

(١٠٨) الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

الفصل الرابع

فريضة الصوم وأثرها في بناء الإنسان

(١١٠)..... الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

العبادات بشكل عام، والصوم بشكل أخص هي مواسم للمراجعة والتجديد، واستعادة الفاعلية والعودة إلى حالة التوازن التي تكاد تفتقد في غمرة الحياة بدوافعها ونوازعها، وهي مراكز التدريب العملي على المعاني الإسلامية، فالصوم عبادة لها دورها في بناء شخصية الإنسان المسلم، وله دور بارز في عملية تهذيب النفوس فهو (مدرسة إيمانية يتربى فيها المرء على مراقبة الله تعالى، ويربي فيها روحه على مراقبة الله تعالى، ويربى فيها شهوته على ترك المباحات ليكون ذلك معيناً له على ترك المعاصي، فإن الصوم كما قيل يعصم الشهوة)^(١)، وقيل الولوج في مدرسة الصوم وأثرها على بناء الإنسان، تُعرف الصوم في اللغة والاصطلاح وعلى النحو التالي:

١. **الصوم في اللغة:** الإمساك عن الشيء والترك له، وقيل للصائم صائم لإمساكه عن الطعام والمشرب والمنكح، وقيل للصائم صائم لإمساكه عن الكلام، والصوم ترك الأكل والصوم قيام بلا عمل^(٢). وقال الرازي: (الصوم أيضاً الإمساك عن الطعام، وقد (صام) الرجل من باب قال، و(صياماً) أيضاً، وقوم (صوم) بالتشديد، و(صائم) أيضاً، ورجلٌ (صومانٌ) أي: صائم، و(صام) الفرس قام على غير اعتلاف)^(٣).

إذن الصوم في اللغة هو مطلق الإمساك، وإن كان يدور حول معاني الامتناع والتوقف.

(١) محمد أحمد الأطرش ، حقيقة التقوى وطرق الوصول إليها ، دار الإيمان ، الإسكندرية ، ٢٠٠٢م : ٤٦ .

(٢) ظ: ابن منظور ، لسان العرب : ٣٥٠/١٢ ، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: ١٥/٢ .

(٣) مختار الصحاح: ٣٧٤ .

٢. الصوم في الاصطلاح: هو (الكف عن تناول أشياء ورد الأمر من الله تعالى بالكف عنها في أزمان مخصوصة، وهي أزمان الصيام، وورد الخطر لتناولها تعبدًا منه جل اسمه لخلقه لذلك، ولطفًا لهم واستصلاحًا)^(١). وقيل أيضاً هو الإمساك عن أشياء مخصوصة وهي الأكل والشرب والجماع، بشرائط مخصوصة)^(٢). فالصوم في الاصطلاح قريب ووثيق الصلة بالمعنى اللغوي، إذ هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع في وقت مخصوص مسبق بنية القرية إلى الله تعالى.

المبحث الأول: رؤية عامة في الصيام:

أولاً: أدلة فريضة الصوم:

١. القرآن الكريم: وهو ما نلاحظه بوضوح في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾^(٣)، يقول العلامة الطباطبائي: (الكتابة معروفة المعنى، ويكنى به عن الفرض والعزيمة والقضاء والحثم)^(٤)، بهذا المعنى يكون الصيام فرضاً على المسلمين كما هو مفروض على الذين من قبلهم من الأمم (أي فرض عليكم كما فرض على المؤمنين من أهل الملل قبلكم، فهو تشبيه الفرضية بالفرضية، ولا تدخل فيه صفته ولا عدة أيامه)^(٥).

(١) المفيد (ت ٤١٣هـ)، المقنعة، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط٢، ١٤١٠هـ: ٣٠٣.

(٢) الكاساني علاء الدين (ت ١٣٢٩هـ)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، (د.ت)، طبع شركة المطبوعات العلمية، القاهرة: ٧٥/٢.

(٣) سورة البقرة: ١٨٣.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ٧/٢.

(٥) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ١٢٤/٢.

٢. السنة الشريفة: قال رسول الله (ﷺ): (أيها الناس، إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وحجوا بيت ربكم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبت بها نفوسكم، وأطيعوا ولاة أمركم، تدخلوا جنة ربكم)^(١)، وقال الإمام علي (عليه السلام): (وفرض الصيام ابتلاء لإخلاص الخلق)^(٢)، وقالت السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام): (فرض الله الصيام تثبيتاً للإخلاص)^(٣).

ثانياً: منزلة فريضة الصيام:

العبادات عموماً يراد منها تقوى الله تعالى، والتقوى في القرآن المجيد وصية الله سبحانه بواسطة سفرائه إلى الأولين والآخرين، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ^٤ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^٥ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا^(٤)﴾، يقول الفخر الرازي: (إن الأمر بتقوى الله شريعة عامة لجميع الأمم، لم يلحقها نسخ ولا تبديل، بل هي وصية الله في الأولين والآخرين)^(٥).

والتقوى كلمة جامعة لفعل الطاعات وترك المعاصي الكبيرة منها والصغيرة، وهي في جملتها تكتنف النفس المؤمنة من داخلها، حيث تنبه الضمير بالإحساس العميق بالمراقبة، والذي به ينبع الخير من قلب المؤمن من دون ضغوط خارجية، وتتفره من الشر بلا قسر أو إكراه، وكانت الوصية بالتقوى من وصايا رسول الله (ﷺ) لقادة

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٢٣/١، وقريب منه، ظ: أحمد بن حنبل، مسند أحمد: ٥/٢٥١.

(٢) نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد: ٨٧/١٩.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار: ١٠٧/٦.

(٤) سورة النساء: ١٣١.

(٥) مفاتيح الغيب: ٥٦/١١.

سراياه، يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (إن النبي (صلى الله عليه وآله) كان إذا بعث أميراً له على سرية أمره بتقوى الله عز وجل في خاصة نفسه ثم في أصحابه عامة)^(١).

ونلاحظ أهمية التقوى في كونها مما يوصى به ويؤكد فيه، فمن وصايا الإمام علي لابنه الحسن (عليه السلام) قال: (... فإني أوصيك بتقوى الله أي بني ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره...)^(٢)، وكذلك هي ما يوصى به الأصحاب، وهذا ما نلاحظه في وصية الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) لأحد أصحابه، إذ قال (عليه السلام): (أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد، وأعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه)^(٣).

فإذا علمنا من كل هذا أهمية التقوى ومنزلتها نلاحظ أن منزلة الصيام من أسمى مراتب التقوى، ويظهر ذلك من سائر العبادات، فيها جوانب محببة للنفس وقريبة من الطباع السليمة في الإنسان، أما الصوم ففيه معاندة للطبع ومقاومته، ولهذا كان من الأعمال الخالصة من الرياء، والتي تستحق الأجر بغير حساب^(٤). ومصادقه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوقِ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٥) هذا الصبر الذي صبره الصابرون هو جراء صبرهم على الشدائد بما فيه من تحمل لها^(٦) ومن مصاديقها الصبر على الجوع والعطش وغيره.

(١) الكليني ، الكافي: ٢٩/٥.

(٢) نهج البلاغة ، شرح محمد عبده: ٣٨/٣.

(٣) الكليني ، الكافي: ٧٦/٢.

(٤) ظ: أحمد عبد الجواد الدومي، الإسلام منهاج وسلوك ، المكتبة العسكرية ، بيروت، ١٩٣: ٥١.

(٥) سورة الزمر: ١٠.

(٦) ظ: الطبرسي ، مجمع البيان: ٢٨٠/٨.

ومن هذه المقاربة نلاحظ أن من مصاديق الصبر الصيام^(١)، وهذا ما نراه في قوله تعالى: ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٢)، إذ فسر (الصبر بالصيام من باب المصداق والجري)^(٣) وهنا يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (الصبر الصيام، وقال إذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم، فإن الله وعجز يقول: (استعينوا بالصبر)، يعني الصيام)^(٤).

فلعبادة الصيام إذن مكانة عظيمة ومنزلة جُئى في الإسلام، إذ نلاحظ أن للصوم ارتباطاً وثيقاً بالتقوى التي هي من أقرب الطاعات والقربان لله تعالى، فاستمد بالتالي منزلته من منزلتها العظيمة، وكذلك أن الصيام مصداق واقعي للصبر كما دلت الأخبار على أن المراد بالصبر الوارد لفظه في القرآن المجيد هو الصيام^(٥).

ونلاحظ منزلة الصيام في منزلة الشهر الذي يوجب فيه (شهر رمضان) الذي هو سبيل الله تعالى الموصلة إليه، فكان بذلك من إحسانه ولطفه، وهذا المعنى نجده في دعاء الإمام علي بن الحسين (السجاد) (استشهد ٩٤ هـ) (عليه السلام) إذ قال: (الحمد لله الذي جعل من تلك السُّبل شهره، شهر رمضان، شهر الصيام، وشهر الإسلام، وشهر

(١) ظ: الألويسي ، روح المعاني: ٣٣٧/١. ومحمد رشيد رضا ، تفسير المنار: ٢٦٢/١.

(٢) سورة البقرة: ٤٥.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١/١٣١، وظ: ناصر مكارم الشيرازي، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٢/١٤٥.

(٤) الكليني ، الكافي: ٤/٦٣.

(٥) يقول العلامة محمد باقر المجلسي: (وفي كثير من الأخبار أن الصبر الصيام)، بحار الأنوار:

التمحيص، وشهر القيام، الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان^(١).

وفي معرض شرح هذه الفقرة من الدعاء؛ يقول السيد محمد حسين فضل الله: (وهكذا كان شهر رمضان سبيل الله الذي أراد للإنسان أن يبدأ رحلته إليه في ما أثاره فيه من أجواء، أو شرع فيه من شرائع، أو حرك فيه من أوضاع، وقد منحه الله شرف الانتماء إليه، ليعيش الناس الشعور بالمضمون الروحي الذي يجعل الزمن إلهياً يحمل في داخله سمو المعنى الإلهي في ما يختزنه من رحمة وعافية ومغفرة ولطف ورضوان، وفي ما يمكن للعباد أن يحصلوا منه على المزيد من ذلك كله...)^(٢).

ولا تقف منزلة الصيام عند هذا بل نلاحظ أن أجر الصوم لم يحدد حسابه، فكان ثوابه عظيماً غير متناه لما نلمسه في الآية مارة الذكر، وكذلك ما ورد عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في قوله: (إن الله (ﷻ) يقول: الصوم لي وأنا أجزي عليه)^(٣)، وهذا عائد إلى أن عبادة الصوم مفتوحة العطاء بالأجر والثواب في جميع حركات وسكنات الصائم، وهذا ما لا نلحظه في منزلة العبادات الأخرى، وهو ما يؤكد الحبيب محمد (ﷺ) في قوله: (الصائم في عبادة وأن كان على فراشه ما لم يغترب مسلماً)^(٤)، ويقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (نوم الصائم عبادة ونفسه تسبيح)^(٥)،

(١) الصحيفة السجادية، تحقيق: محمد باقر الموحّد الابطحي، مؤسسة الإمام المهدي (عليه السلام)، قم، ١٤١١هـ، ص ١٣.

(٢) شهر رمضان رحلة الإنسان إلى الله، دار الملاك، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٣.

(٣) الكليني، الكافي: ٦٣/٤.

(٤) المصدر نفسه: ٦٤/٤.

(٥) المصدر نفسه: ٦٤/٤.

وكل ذلك كرم من الله سبحانه وتفضل منه على عباده لإقامة هذه الفريضة الكريمة لما وهب فيها من جزيل الثواب إذ (إن الصوم أجره عظيم، وثوابه جسيم، وما يدل على فضله من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى)^(١).

ثالثاً: حقيقة الصيام:

كثير من المسلمين يتجه إلى أن تكون علاقته بالصيام من خلال الإمساك عن المفطرات الحسية كالأكل والشرب، والجماع... وغيرها، متجاهلاً أو غافلاً عن وجود مفطرات معنوية ينبغي للمسلم أن يمسك عنها؛ لأنها تمثل الخط الموصل إلى الكمال المعنوي في الإنسان الملتزم.

وقد حرص عدل القرآن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) على تأكيد هذا الجانب المهم في العبادات الإسلامية لتبعد الإنسان عن ممارسة حرفية العبادات، من دون أن تكون له دراية بعمقها الحركي في الحياة الإنسانية، يقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله): (لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتتم حتى تكونوا كالأوتاد، لم يقبل الله منكم إلا بورع)^(٢)، ويقول الإمام علي (عليه السلام): (ليس الصوم الإمساك عن المأكل والمشرب، الصوم الإمساك عن كل ما يكرهه الله سبحانه)^(٣)، ويقول (عليه السلام) أيضاً مناظراً بين صوم الجسد وصوم النفس: (صوم الجسد الإمساك عن الأغذية بإرادة خوفاً من العقاب ورغبة في الثواب والأجر، وصوم النفس، إمساك الحواس من سائر المآثم وخلو القلب

(١) محمد مهدي النراقي ، جامع السعادات: ٣/٣٧٩.

(٢) المجلسي ، بحار الأنوار: ٤/٢٥٨.

(٣) نهج البلاغة ، شرح ابن أبي الحديد: ٢٠/٢٩٩.

من أسباب الشر^(١)، ويقول الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) في مناجاته: (وأعنا على صيامه بكف الجوارح عن معاصيك واستعمالها فيه بما يرضيك)^(٢).
ونلاحظ أن هناك مفطرات معنوية يجب ان يتجنبها الصائم ليتحقق بها المعنى الحقيقي للصيام، ومنها^(٣):

١. الورع عن محارم الله سبحانه، ففي جملة من خطبة الرسول (صلى الله عليه وآله) قال الإمام علي (عليه السلام): (فقلت، يا رسول الله، ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال (صلى الله عليه وآله): يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله)^(٤). فالورع عما حرم الله (صلى الله عليه وآله) من أسمى صور العبادات عموماً، إلا انه في الصيام له دوره المتميز لتحقيق مضامينه العالية باعتبار ان فريضة الصيام مما لا يطلع عليها إلا الله سبحانه في الغالب فيكون الإنسان لهذا أكثر حذراً.

٢. عفة اللسان وغيض البصر: يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (إن الصيام ليس من الطعام والشراب وحده، ثم قال: قالت مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾^(٥)، أي صمتاً، فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم، وغيضوا أبصاركم، ولا تنازعوا، ولا تحاسدوا. قال: وسمع رسول الله (صلى الله عليه وآله) امرأة تسب جارية لها وهي صائمة، فدعا رسول الله (صلى الله عليه وآله)

(١) علي بن محمد الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث: ٣٠٥.

(٢) الصحيفة السجادية، ٢١٠.

(٣) ظ: حسين علي المصطفى، فلسفة العبادات: ٢٠٦، ومحمد مهدي النراقي، جامع السعادات: ٣/٣٧٩، وأحمد غنيم، فلسفة الصيام، دار الفكر، ١٤٠٥هـ: ١٨٦.

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٠/٣١٥، والمجلسي، بحار الأنوار: ٤٢/١٩٠.

(٥) سورة مريم: ٢٦.

بطعام، فقال لها كلي، فقالت: إني صائمة، فقال: كيف تكونين صائمة وقد سببت جاريتك، إن الصوم ليس من الطعام والشراب^(١).

فالترقي عن المحرمات والشبهات والتحرز عن الشهوات بتهديب الجوارح، يعكس آثار الصوم على سلوك الإنسان ويحقق مقصوده المتمثل في كسر شهوات النفس وكبح جماحها.

٣. الامتناع عن الغيبة: قال رسول الله ﷺ: (ومن اغتاب أخاه المسلم بطل صومه وانتقض وضوؤه، فإن مات وهو كذلك مات وهو مستحل لما حرم الله)^(٢). لان الغيبة مُفسدة للروح وغشاوة عليه، وهي مُهجرة للحسنات ومجلبة للسيئات، وهي أدام أهل النار هي (في غير الصوم حرام، فكيف بالصوم وهو العبادة لتطهير وتزكية النفس)^(٣).

٤. حفظ الجوارح عن القبائح: يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (إذا أصبحت صائماً فليصم سمعك وبصرك من الحرام، وجارحتك وجميع أعضائك من القبيح، ودع عنك الهذي وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصائم، والزم ما استطعت من الصمت والسكوت إلا عن ذكر الله ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك...)^(٤).

٥. كراهة القُبلة والملامسة بشهوة: عن الأصبغ بن نباته قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين أقبل وأنا صائم؟ فقال له: (عف صومك، فإن

(١) الكليني ، الكافي: ٨٧/٤.

(٢) الحر العاملي ، وسائل الشيعة: ٦٠٢/٨ ، والمجلسي ، بحار الأنوار: ٢٦٣/٧٣.

(٣) مصطفى السباعي، أحكام الصيام وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٥.

(٤) الحر العاملي ، وسائل الشيعة: ١٦٥/١٠ ، المجلسي ، بحار الأنوار: ٩٣ / ٢٩٢

بدو القتال اللطام^(١). وهذا تعريض للنفس الإنسانية للشهوة وتغليب عليها وشغلها عما يُراد منها من ذكر الله ﷻ وتربية لها على الصبر، إذ مَنْ حام حول الحمى كاد ان يقع فيه؛ وهو الواضح من تحذير أمير المؤمنين (عليه السلام).

فعلى ذوي البصائر أن يقفوا على هذه الشرائط وغيرها وقفة تأمل، حيث لا وصول إلى الغايات السامية في العبادة إلا بتلمس حقائقها، ومن دون ذلك لا يرتقي الإنسان إلى روح العبادة الصحيحة، ويكون حظه كمن يقول في حقه أمير المؤمنين (عليه السلام): (كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ)^(٢)، لأن هذا الإنسان لم يُعبّد جوارحه بـ(حضور القلب الذي هو روح العبادة، والذي ترتبط به حقيقة العبادة، ومن دونه لا يكون له أهمية، ولا تقع مقبولة في ساحة الحق المتعالي)^(٣)، فترد ولا تُقبل هذه العبادة وإن أداها الإنسان من غير إقامتها، فيقع آنذاك الخسران الذي لا خسران بعده، بعد أن أفرغ هذه العبادة من محتواها وغايتها.

ومما تقدم نلحظ أن للصوم درجات، ويمكن تقسيمها على النحو التالي^(٤):

الأولى: صوم العموم: وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وهذا لا يفيد أزيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب، فهذه الدرجة من الصوم هي الامتناع عن المباحات، بغية أداء هذه العبادة وإسقاط المطالبة بها، وبهذا يكون الإنسان أكثر امتناعاً عن المحرمات التي ربما كان يقترفها في غير أداء الصيام، وإلاّ

(١) نفس المصدر: ٩٩/١٠.

(٢) نهج البلاغة ، شرح ابن أبي الحديد: ٣٤٤/١٨.

(٣) الإمام الخميني ، الأربعون حديثاً: ٤٨١.

(٤) للتوسعة ، ظ الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣٢٩/١ ، محمد مهدي النراقي، جامع السعادات:

يكون هذا الإنسان هازلاً أكثر منه صائماً، وقريباً من الشيطان أكثر مما يراد منه القرب إلى الله سبحانه، يقول الشيخ محمد أمين زين الدين (ت ١٤١٩ هـ): (وما ظنك بعبدٍ يمسك عن منهيّات الصوم من المباحات والمحرمات ليرضي ربه بهذه العبادة، ثم يرتكب تلك الجرائر أو بعضها؟! ومن المضحك المبكي أن يقول مع ذلك، أعود بالله من الشيطان الرجيم)^(١).

الثانية: صوم الخصوص: وهو الكف عن المذكور، مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصي، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع.

الثالثة: صوم خصوص الخصوص: وهو صوم القلب عن الهمم الدنية والأخلاق الرديئة، والأفكار الدنيوية، والكف عما سوى الله تعالى بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ما سوى الله واليوم الآخر، وحاصل هذا الصوم إقبال بكنه الهمة على الله، وانصراف عن غير الله **وَعِزَّ**، وهذه الدرجة من أرقى درجات الصيام وأسماها شأناً ومقاماً، وهو صوم الصفوة المنتجة الخالصة من الأنبياء **(عليهم السلام)**، وأوصيائهم المعصومين **(عليهم السلام)**، وهذه الدرجة مما يسعى إليها الإنسان ليصل بذلك على أقل تقدير إلى الحد الأدنى، وإلا فإن هذه الدرجة هي بالحقيقة صوم خصوص الخصوص، وهذا مما لا يثبط العزائم عن بلوغها إذ (العدالة المكتسبة غير العصمة، والتابع غير القائد المتبوع، والكامل المتزايد في غير الكمال، غير الناقص المتكامل، والمستضيء بنوره غير المضيء المنير، والله سبحانه هو مؤتي كل نفس ما هي له أهل وموفيهما جزاء

ما كسبت من منزلة ومن ثواب أو عقاب^(١)، فالإنسان بالتالي هو الذي يرقى نفسه في سمو الطاعة والتنافس الحقيقي، إذا ما توكل على الله تعالى وهياً نفسه.

المبحث الثاني: أثر فريضة الصوم في بناء الإنسان:

الصيام يشكل مادة تعليمية مهمة في صقل نفس الإنسان المسلم بالتقوى وتربيتها على الطاعة والانقياد لله تعالى، باعتباره المقصد الأول في فريضة الصيام (فإن الله أمر بالصيام والعبد مطالب شرعاً بتنفيذ ما أمر به بغض النظر عن أي فائدة متوخاة من فريضة الصيام)^(٢). وبهذا يقول سيد قطب: (فالصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة، ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد؛ كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها، واحتمال ضعفها وثقلها، إثارة لما عند الله من الرضى والمتاع)^(٣)، فيكون أمل الصائم متعلقاً أولاً وآخرًا بالله **عِزًّا**، فالصيام له سبحانه تقريباً، وهو المجزي عنه كما تقدم، وهو المعطي والمانع ف(ينبغي لكل صائم أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً، معلقاً بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدري أيُّقبل صومه فهو من المقربين أو يُرد عليه فهو من الممقوتين، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها)^(٤). فالصيام سباق نحو الله تعالى يخوضه الإنسان، وهذا المعنى نلحظه في قول السبط الإمام الحسن المجتبي **(عليه السلام)** عندما يقوم يوم العيد والناس يضحكون، فقال **(عليه السلام)**: (إن الله تعالى جعل شهر رمضان مضمراً لخلقه، يستبقون فيه لطاعته،

(١) نفس المصدر : ١٠٧/٢ .

(٢) د. محمد حسن أبو يحيى، أهداف التشريع الإسلامي: ٣٥٩ .

(٣) في ظلال القرآن، ١/١٦٧ .

(٤) التراقي محمد مهدي ، جامع السعادات: ٣/٣٨٠ .

فسبق أقوام ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون، وخاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه، والمسيء عن أسأته^(١)، إذ ليس المقصد منه تعذيب النفس، وإنما هو السمو والارتقاء في طاعة الله سبحانه وتنفيذ أمره، وإعداد هذه النفس (لتقوى الله تعالى بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة امتثالاً لأمره واحتساباً للأجر عنده، فنتريى بذلك إرادته على ملكة ترك الشهوات المحرمة، والصبر عنها فيكون اجتنابها أيسر عليه، وتتقوى على النهوض بالطاعات والاصطبار عليها فيكون الثبات عليها أهون عليه... فالصيام لتربية النفس وتركيتها لا لتعذيبها)^(٢)، وإن كان ظاهر الصوم نوعاً من التضييق والتحديد، إلا أن الغاية هي إرادة اليسر من الله تعالى لعباده لا العسر، وهو الواضح في قوله سبحانه: ﴿يَكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٣).

يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: (ولعل هذه العبارة إشارة إلى أنّ الأوامر الإلهية ليست كأوامر الحاكم الظالم، ففي الصوم رخص حيثما كان فيه مشقة على الصائم، لذلك رفع تكليف الصوم على أهميته عن المريض والمسافر والضعيف)^(٤)، والآية في دلالتها تشريع لليسر على الإنسان، ليخفف عن نفسه شاء أم أبى، بل هو أمر منه سبحانه للإنسان بالإفطار، وعدم الصيام في الحالات المذكورة المتقدمة^(٥).

(١) الكليني ، الكافي: ١٨١/٤.

(٢) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار: ١٢٥/٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٤) الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٦٧/١.

(٥) ظ: الألوسي ، روح المعاني: ٦٧٢ /٢.

وعلى كل حال فالإسلام لا يُريد من الصوم أن يكون حالة جسدية فقط بل حالة روحية ونفسية وسلوكية فالصوم وسيلة تربوية لبناء الفضائل، ودلالة ذلك واضحة في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾^(١)، فمن استهلال الآية نلاحظ ذلك النداء التربوي (يا أيها الذين آمنوا) الذي يستشعره المؤمنون؛ لأن الله سبحانه شرفهم وخاطبهم بهذه الصفة المحببة لقلوبهم، ومنعشة لأفئدتهم، وفي هذا الاستهلال قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (لذة ما في النداء - يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا - أزال تعب العبادة والعناء)^(٢)، هذا النداء لذّة لهم، وتطيب النفوس المخاطبة به (ومن ثم يبدأ التكليف بذلك النداء الحبيب إلى المؤمنين المذكر لهم بحقيقتهم الأصلية، ثم يقرر لهم بعد ندائهم ذلك النداء، إن الصوم فريضة قديمة في كل دين وأن الغاية الأولى هي إعداد قلوبهم للتقوى والشفافية والحساسية والخشية من الله)^(٣).

وعلى ضوء ما تقدم تتجلى آثار الصوم في بناء الإنسان في ما يأتي:

١. ترسيخ التقوى: بعد تأكيد الحكم على المؤمنين، نلاحظ كما تقدم أن وراء هذه المشقة قصداً، وأنه ليس للامتحان فقط (إنما هو رياضة وتربية وإصلاح وتركيز،

(١) سورة البقرة: ١٨٣.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان، ٥/١. وبحسب تتبع الباحث لم يعثر على الحديث في المصادر الحديثية.

(٣) سيد قطب: ١٦٨/١، وللتوسعة في تاريخية الصيام و ظ: احمد شلبي، مقارنة الأديان في الإسلام: ١٥٠.

ومدرسة خلقية يتخرج منها الإنسان فاضلاً كاملاً يملك نفسه وشهوته، لذلك قال الله

تعالى: ﴿لَمَلِكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

وكما تقدم في بيان منزلة الصيام في أنها تكمن في التقوى، يقول سيد قطب: (وهكذا تبرر الغاية الكبيرة من الصوم... إنها التقوى... فالتقوى هي التي تستيقظ في القلوب وهي التي تؤدي هذه الفريضة، طاعة الله، وإيثاراً لرضاه، والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية، ولو تلك التي تهجس في البال، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله ووزنها وميزانها، ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفاً وضيئاً يتجهون به عن طريق الصيام ﴿لَمَلِكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢) فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم، وهذا الصوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها. وبكلمة.. تسمو النفس بالتالي وتحقق التركيزية فيها بتهذيب الهوى جراء التقوى لأن (الصوم وصلة التقوى لما فيه من قهر للنفس، وكسر الشهوات)^(٣)، فتجعله تابعاً لإرادتها فتقضي على الرذيلة، وبهذا البناء تشعر النفس المؤمنة بعظمة الله تعالى والقرب منه سبحانه.

٢. **المراقبة والإخلاص:** اتضح أن الهدف من الصوم ليس الحرمان من الطعام والشراب وحسب، بل تكمن وراء ذلك حكمة سامية هي غرس مبدأ المراقبة والصبر والعزيمة، وبهذه الصفات العالية يتصدى الصائم لجميع حوادث الدهر وعقباته، ويعده إعداداً نفسياً لتقوى الله سبحانه فيترى على ترك المحرمات والنهوض بالطاعات

(١) أبو الحسن الندوي، الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة، دار القلم، الكويت، (دت)، ص ٢١٠.

(٢) في ظلال القرآن: ١/١٦٨، وظ: محمد رشيد رضا، في تفسير المنار: ٢/١٢٣.

(٣) البغوي، معالم التنزيل: ١/١٣٢.

والثبات على العبادة، فالمراقبة والخوف من الله تعالى يخلق في نفس الصائم وزعاً دينياً يمنع التفكير في الجرائم والشُرور، لأنه يمنع من داخل نفسه، ولذلك يفعل الوازع ما لا تفعله القوة والسلطان لأنه يغرس المراقبة الذاتية في نفس الإنسان ليقينه بأن الله تعالى لا تخفى عليه خافية: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١).

فنلاحظ أن الإنسان الصائم ينفرد بالطعام والشراب وهو جائع لا يمنعه منه إلا إيمانه العميق ووازعه الذاتي المبني على الإخلاص العبادي، لذا يجب أن يكون الشعور بالرقابة شعوراً فردياً شخصياً داخلياً من الإنسان نفسه، وبعيداً عن أي رادع أو وازع خارجي، فرقابة الإنسان الداخلية على نفسه هي التي تبني مساره في الحياة، وأن هذا الشعور بالرقابة الداخلية مما لا يمكن أن تبلغ إليه أي رقابة خارجية أخرى لسلطان أو قانون، يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر: (إن الضمانات الموضوعية لها دور كبير في السيطرة على سلوك الأفراد وضبطه، فإنها لا تكفي في أحيان كثيرة بمفردها ما لم يكن إلى جانبها ضمان ذاتي، ينبثق عن الشعور الداخلي للإنسان بالمسؤولية؛ لأن الرقابة الموضوعية للفرد مهما كانت دقيقة وشاملة لا يمكن عادة أن تضمن الإحاطة بكل شيء واستيعاب كل واقعة) (٢).

فالرقابة الداخلية النابعة من هذه العبادة لها دور مهم في بناء الإنسان خارجياً، إذ سرعان ما تتعكس على ظاهره، ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (٣)، فدلالة هذه الآية الكريمة على أن التغيير الداخلي للإنسان

(١) سورة غافر: ١٩.

(٢) نظرة عامة في العبادات: ٤٤.

(٣) سورة الرعد: ١١.

يسهم بدور كبير في تغيير بناء الأمة، ومن الخطأ بين الناس أن التغيير والإصلاح إنما يحدث ويبدأ من المجتمع نحو الأفراد، بل إن عملية البناء والتغيير إنما تحدث من الأفراد أنفسهم متجهة نحو الآخرين، وبتطافر الجهود الفردية واجتماعها تحدث عملية البناء والتغيير الاجتماعي للأمة، وبالتالي متى ما يحدث التغيير الداخلي يحدث التغيير الخارجي، فإن كان خيراً فخير أو شراً فشر^(١). وكذلك ما نلاحظه في قول الرسول (ﷺ): (من أصلح باطنه أصلح الله ظاهره)^(٢).

وبذلك تتربى النفس الإنسانية على الإخلاص ظاهراً وباطناً، خشية وقوع التغيير في نعم الله تعالى عليها، إذا ما هي انحرفت وزاغت، فاستشعار مراقبة الله تعالى من السمات الروحانية المستهدفة من عبادة الصيام، إذ إن قبول العمل شرعاً يتوثق تحقيقه على تلك الخصوصية الخطرة في الشرع، قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَكَ. مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۗ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٣)، وإن بناء الرقابة في الإنسان من أهم تجليات مظاهر التقوى في عبادة فريضة الصيام، وأبرزها أثراً وأعظمها شأنًا، وأعلاها شرفاً، ويعلّل محمد رشيد رضا، سبب هذه الأهمية والمكانة للرقابة في هذه العبادة إلى أنه: (أمر موكل إلى نفس الصائم لا رقيب عليه إلا الله تعالى، وسرٌّ بين العبد وربّه لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه، فإذا ترك الإنسان - كل المباحات من مأكّل ومشرب وجماع

(١) ظ: الطبرسي ، مجمع البيان: ١٥/٦ ، والرازي مفاتيح الغيب: ١٩/٩ .

(٢) الكليني ، الكافي: ٣٠٧/٨ .

(٣) سورة البينة: ١١ .

ف - لولا إطلاع الله تعالى عليه ومراقبته له لما صبر عن تناولها وهو في أشدّ التوق لها (١).

ولتعزيز بناء المراقبة الداخلية في الإنسان يحتاج إلى استمرار في العبادة، فهي مما يحفز الشعور بوجود المطلق سبحانه، وهذا المران يُكيف النفس الإنسانية على أن الموفي للأجر والعطاء لا تخفى عليه خافية مهما صغرت ف(المران العملي الذي ينمو من خلاله هذا الشعور الداخلي بالمسؤولية يتحقق عن طريق الممارسات العبادية، لأن العبادة واجب غيبي، ونقصد بكونها واجباً غيبياً أن ضبطها بالمراقبة من الخارج أمر مستحيل، وإنما الرقابة الوحيدة الممكنة في هذا المجال هي الرقابة الناتجة عن الارتباط بالمطلق بالغيب، الذي لا يعزب عن علمه شيء) (٢).

وبهذا المران على العبادات وعبادة الصيام خصوصاً من ترك ما اعتاده في غير أيام الصيام، فإن هذا الإنسان (لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة المراقبة لله تعالى والحياء منه سبحانه أن يراه حيث نهاه، وفي هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى، والاستغراق في تعظيمه وتقديسه أكبر مُعد للنفس، ومؤهل لها لضبط النفس ونزاهتها في الدنيا، ولسعادتها في الآخرة) (٣). فلا تقف بالتالي هذه المراقبة على مراعاة الله وعِزِّه في المأكل والمشرب، وفي شهر من

(١) تفسير المنار: ١٢٥/٢.

(٢) محمد باقر الصدر، نظرة عامة في العبادات: ٤٥، ظ: محمد مهدي الآصفي، دور الدين في حياة: ١٥٥.

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ١٢٥/٢.

الشهور أو يوم من الأيام، بل تتعدى كل مواقف الإنسان وفي كل سكناته وحركاته، وهذا هو مقصد البناء العبادي لهذه الفريضة.

٣. ومن ثمار عبادة الصيام التضرع والدعاء، ولا شك أن الصائم أقرب الدُعاء

استجابة، وذلك لانعكاس تلك الفريضة تربوياً على نفسه إيماناً وتقوى وإنابة، وعلى سلوكه حباً للطاعة والدعوة في إطار إيجابية الأداء، ونلاحظ التوجيه إلى ممارسة الدعاء من خلال قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(١)، إذ يبرز البناء العبادي على طاعة الدعاء من مجيء هذه الآية في آيات الصيام، لأن فريضة الصيام تدفع الإنسان نفسياً إلى التعلق بالدعاء لما تقدم من استشعاره بالرقيب المطلق سبحانه، فضلاً عن أن فريضة الصيام تسهم في رفع روحانية نفسه، وسموها مما يؤثر تأثيراً ملحوظاً في إقبال الإنسان على الدعاء، فكانت الدعوة واضحة إلى الدعاء في سياق آيات الصوم، يقول ابن كثير: (في ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عن إكمال العدة، بل عند كل فطر)^(٢)، ومما يلفت النظر في الآية الكريمة أيضاً، أن الله تعالى أشار إلى ذاته المقدسة سبع مرات وأشار إلى عباده سبعاً! مجسداً بذلك غاية لطفه وقربه وارتباطه بعباده، فلا يقتصر الدعاء على طلب استجابة الحاجات، بل هو أيضاً لتحقيق هذا

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١/٢٢٦، وظ: القاسمي، محاسن التأويل: ١٧٣/٢.

الارتقاء والارتباط بالمطلق سبحانه (وأي مطلوب نفسي أعظم منه مع كونه من الانقطاع إلى الله ومظهر العبودية المحضة لله تعالى)^(١).

وقد أكدت آيات قرآنية كريمة على أهمية الدعاء والحث عليه، ووجوب تعلق قلب الإنسان بالله سبحانه وحده، وان (الآيات كثيرة في هذا الباب فمن أبطل الدعاء فقد أنكر القرآن)^(٢)، ومن هذه الآيات، قوله تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام): ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾^(٣)، هذا الدعاء الخاشع من إبراهيم (عليه السلام) ينجي ربه بالدعاء الخاشع الضارع يرتسم فيه إبراهيم (عليه السلام) أبو الأنبياء نموذجاً للعبد الصالح الذاكر الشاكر، كما ينبغي ان يكون الإنسان كعبد لله تعالى^(٤).

وفي أهمية الدعاء ما نلحظه في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾^(٥) يقول السيد الطباطبائي: (إن المدعو يجب أن يكون هو الله سبحانه، وإنما يكون ذلك عندما ينقطع الداعي عن عامة الأسباب الظاهرية، ويتعلق قلبه بربه وحده، وأما من تعلق قلبه بالأسباب الظاهرية فقط، أو بالمجموع من ربه ومنها فليس يدعو ربه وإنما يدعو غيره)^(٦)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْجُبُوكُمْ بِرَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا

(١) حسين نجيب محمد ، جمال السالكين للعالم الرباني السيد عبد الأعلى السبزواري: ١٧٣.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ٨٥/٥. وفي الآيات ظ على سبيل المثال: سورة الأعراف: الآية ٥٦، وسورة الزمر الآية: ٨.

(٣) سورة إبراهيم، ٤١.

(٤) ظ: سيد قطب في ظلال القرآن، ٣١١٠/١٣.

(٥) سورة النمل: ٦٢.

(٦) الميزان في تفسير القرآن: ٣٢٣ / ١٥ ، وظ: ابن عاشور ، التحرير والتنوير: ٢٨٩/١٩.

﴿^(١)، فاكثرته سبحانه بهم (إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكثر لهم البتة، ولم يعتد بهم، ولم يكونوا عنده شيئاً يبالي به)﴾^(٢)، يقول الشيخ محمد مهدي الآصفي: (فإن الدعاء هو الإقبال على الله، والاضطرار والتوجه إلى الله تعالى وهو من أقوى الارتباط بالله... فلا يعبأ الله بعبده، لولا هذا الانشداد والارتباط والعلاقة القائمة على أساس الفقر والاضطرار إلى الله)^(٣).

وأكد أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أهمية الدعاء، وضرورة الالتزام به والإلحاح فيه، يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (الدعاء يرد القضاء بعد ما ابرم إبراماً فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمة ونجاح كل حاجة، ولا ينال ما عند الله وعجز إلا بالدعاء وإنه ليس باب يُكثر قرعه إلا يوشك أن يفتح لصاحبه)^(٤)، ويقول الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام): (عليكم بسلاح الأنبياء، فقيل: ما سلاح الأنبياء؟ قال (عليه السلام): الدعاء)^(٥). ولا تقتصر عبادة الدعاء فقط عند نزول البلاء، بل هو عبادة مفتوحة في كل مكان وزمان وفي الشدة والرخاء، سواء بسواء، يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (من سره أن يستجاب له في الشدة، فليكثر الدعاء في الرخاء)^(٦)، وكذلك ما نلاحظه في قوله (عليه السلام): (من تقدم في الدعاء استجيب له إذا نزل به البلاء، وقيل: صوت معروف ولم يحجب عن السماء، ومن لم يتقدم في الدعاء لم يستجب له إذا نزل به

(١) سورة الفرقان: ٧٧ ، ويمكن القول إن (دعاؤكم) المقصود منه مطلق الإيمان والعبادة.

(٢) الزمخشري ، الكشاف: ٣/٣٠٣ ، وظ: الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ٦٥/١٩.

(٣) في رحاب القرآن ، المشرق للثقافة والنشر، النجف الأشرف ، ٢٠٠٨: ٣١/١٤.

(٤) الكليني ، الكافي: ٤٧٠/٢ .

(٥) الحر العاملي ، وسائل الشيعة: ٣٩/٧.

(٦) الكليني ، الكافي: ٤٧٢/٢ .

البلاء، وقالت الملائكة: إن ذا الصوت لا نعرفه^(١). وعنه (عليه السلام) عن آبائه عن الإمام علي (عليه السلام) أنه كان يقول: (ما من أحد ابتلى وإن عظمت بلواه أحق من المعافى الذي لا يأمن البلاء)^(٢).

وقد خص الصيام في شهر رمضان المبارك وغيره بأدعية ماثورة^(٣) أوضح الأئمة (عليهم السلام) أهميتها وأثرها، فهذه الأدعية تعد (امتيازاً لمدرسة أهل البيت (عليهم السلام))، وتأكيداً لعلمهم وإمامتهم ودورهم في الحياة الإسلامية، وتوضيحاً لمنهجهم في بناء الجماعة الصالحة والأهداف السامية لهذا البناء، ومنها إيجاد هذه الجماعة المتكاملة في جانبها الروحي والمعنوي^(٤)، فنتعزز علاقة الإنسان بالمطلق سبحانه لأن الإنسان بطبيعته وفطرته مشدودة إليه سبحانه، لأن علاقته بالمطلق تمثل أحد مقومات نجاحه وتغلبه على مشاكله في مسيرته الحضارية، وهو بحاجة إلى سلوك عملي يعمق هذه العلاقة ويوثقها بدلاً من أن تضع أدرج الرياح (بدون سلوك معمم قد يضر هذا الشعور ولا يعود الارتباط بالمطلق حقيقة فاعلة في حياة الإنسان، وقادرة على تفجير طاقاته الصالحة)^(٥)، ويشد من أواصر القرب الإلهي فهو نوع من أنواع (التوعية وإيقاظ القلب والعقل، وارتباط داخلي بمبدأ كل لطف وإحسان)^(٦).

(١) الكليني، الكافي / ج ٢، ٤٧٢.

(٢) الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ٤/٤٠٠، وظ: الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤٢/٧.

(٣) ظ: على سبيل المثال: الكفعمي (ت ٩٠٠هـ) تقي الدين إبراهيم العاملي، البلد الأمين والدرع الحصين، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٤م، عباس القمي، مفاتيح الجنان، الجوهري، ضياء الصالحين، منشورات ذوي القربى، بيروت، ...

(٤) محمد باقر الحكيم، دور أهل البيت (عليهم السلام) في بناء الجماعة الصالحة: ٣٤٨/٢.

(٥) محمد باقر الصدر، نظرة عامة في العبادات: ٣٤.

(٦) ناصر مكارم الشيرازي، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٧٦/١.

فالإنسان الذي يكون قلبه مشغولاً بغير الله وعِجلاً، يكون بعيداً عن تقبل الله سبحانه لدعائه، ولو اجتهد ظاهره، وبالتالي يحرم من استجابة ذلك الدعاء أو حصول الأجر فيه. يقول الإمام علي (عليه السلام): (لا يقبل الله عِجلاً دعاء قلب لاه) (١). وعن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (إن الله عز وجل لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن الإجابة) (٢).

فنلاحظ أن الله ﷻ ختم آية الدعاء بـ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، ففيها دلالة واضحة على أن يكون تطبيق الإنسان للأمر الإلهي بتوجه من القلب المفعم بالإيمان المطلق بصاحب الأمر، لا على وجه الإسقاط وحسب، يقول محمد رشيد رضا: (أي بالجمع بين الإذعان للأمر والنهي، والرشد والرشاد، ضد الغي والفساد فعلمنا ان الأعمال إذا لم تكن صادرة بروح الإيمان، لا يرجى ان يكون صاحبها راشداً مهدياً، فمن يصوم اتّباعاً للعادة وموافقة للمعاشرين، فإن الصيام لا يعدّه للتقوى ولا للرشاد، وربما زاده فساداً في الأخلاق وضراوة بالشهوات، لذلك يذكرنا تعالى - في أثناء سرد الأحكام - بان الإيمان هو المقصود الأول في إصلاح النفوس، وإنما نفع الأعمال في صدورها عنه وتمكينه إياها) (٣).

وبكلمة: أكد القرآن الكريم (أهمية الدعاء في رمضان وللصائمين فيه وان رمضان من الأزمان المباركة التي تستجاب فيه الدعوات لا سيما ليلة القدر وساعة

(١) الكليني ، الكافي: ٤٧٣/٢ .

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تفسير المنار، ١٤٨/٢ .

الإفطار للصائم^(١)، وان لهذه الاستجابة شروط ظاهرية وقلبية يجب أن يتحلى بها الإنسان عند مباشرته لهذه العبادة العظيمة، وهذا بطبيعة الحال لا يُغنينا عن التوسل بالعوامل الطبيعية، ليحدث بذلك تغيير كبير في حياة الإنسان وتجديد لمسيرته، وإصلاح لنواقصه سواء أكان في أيام الصيام أو في سائر أيامه الأخرى.

وعلى مستوى البناء الاجتماعي للإنسان نلاحظ أثر الصوم فيه، إذ يجعل من هموم الفقراء والبؤساء تجربة حية يعانيتها الأغنياء بأنفسهم لنتحرك المأساة في أجسامهم وضمائهم، يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (إنما فرض الله الصيام ليستوي فيه الغني والفقير، وذلك أن الغني لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير، لأن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه، فأراد الله تعالى أن يسوي بين خلقه، وأن يذيق الغني مسّ الجوع والألم ليرق على الضعيف ويرحم الجائع)^(٢).

وفي جانب من جوانب التضامن الاجتماعي يبرز بشكل واضح في قول أمير المؤمنين علي (عليه السلام): (ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جسعي إلى تخير الأطمعة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثي وأكباد حرّى)^(٣). وهذه هي حقيقة من حقائق فريضة الصيام، إذ إن (فلسفة الإمساك لم تحد بحدود الطعام والفرج، إذ الصوم سلاح

(١) عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، الصيام ورمضان في السنة والقرآن، دار التعليم، دمشق، ١٤٠٧هـ، ص ١٧٣.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٣/٣٠، والمجلسي، بحار الأنوار: ٣٧/٩٣.

(٣) نهج البلاغة، شرح محمد عبده: ٣/٧٢، والمجلسي، بحار الأنوار: ٣٣/٤٧٤.

الإيمان لقتل شيطان النفس، وتهذيب الروح، وهي عبادة تورث الوقاية، وتعمق محاسبة الإنسان لذاته من منطلق مسؤوليتها أمام الله عز وجل ^(١).

وكذلك للصيام الحقيقي آثار واضحة في تنمية التكافل الاجتماعي، ويظهر ذلك من خلال زكاة الفطرة التي هي من أبرز وأوضح صور التكافل الاجتماعي التي يفرزها ويتركها شهر رمضان المبارك، حيث أوجب الله في نهايته على المسلمين زكاة الفطر، يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (إن من تمام الصوم إعطاء الزكاة - يعني الفطرة - كما أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله) من تمام الصلاة، لأنه مَنْ صام ولم يؤد الزكاة فلا صوم له إذا تركها متعمداً، ولا صلاة له إذا ترك الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله)، إن الله عز وجل قد بدأ بها قبل الصلاة، قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ١٤ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ١٥ ^(٢) ^(٣).

ومن مظاهر حكمة زكاة الفطرة ومشروعيتها بناء الإنسان على إسعاد أخيه المحتاج، وذلك أن (من حكمة إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد أن الناس تمتنع عن الكسب في العيد، ولا يجد الفقير من يستعمله، لأنها أيام سرور وراحة عقب الصوم، فيأتيه من زكاة الفطر غالباً كفايته) ^(٤).

(١) حسين علي المصطفى، فلسفة العبادات: ٢٢٢، ظ: محمد نبيل، العبادات في الإسلام وأثرها في تضامن المسلمين، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ١٤٠٣هـ: ١٠٠.

(٢) سورة الأعلى، ١٤-١٥.

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ١٨٣/٢، الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٤٠٧/٦.

(٤) محي الدين مستو، عبادات الإسلام فقهها وأسرارها، دار ابن كثير، دمشق، ١٤١١هـ: ٣١٣.

وعلى المستوى الصحي مما لا يخفى أثره في بناء جسم الإنسان، وقد عنيت بحوث متخصصة أجاد باحثوها^(١)، على ان الحقيقية المتيقن منها أن الله ﷻ لا يأمر أو ينهى عن شئ إلا وفيه حكمة ومصلحة للإنسان سواء أكانت المصلحة متحققة في الدنيا أو مؤجلة للأخرة؛ وما يؤكد أهله الاختصاص فيُركن إليه للاستيناس ليس إلا، يقول سيد قطب: (ذلك كله إلى جانب ما ينكشف على مدار الزمن من آثار نافعة للصيام في وظائف الأبدان، ومع إنني لا إميل إلى تعليق الفرائض والتوجيهات الإلهية بما يظهر للعين من فوائد حسية، إذ الحكمة الأصلية فيها هي إعداد الكائن البشري لدوره على الأرض، وتهيئته للكمال المقدر له في الحياة الآخرة.. مع هذا فاني لا أحب ان انفي ما تكشف عنه الملاحظة أو يكشف عنه العلم من فوائد لهذه الفرائض، وذلك ارتكازاً إلى المفهوم من مراعاة التدبير الإلهي بهذا الذي ينكشف عنه العلم البشري، فمجال هذا العلم محدود لا يرتقي إلى اتساع حكمة الله في كل ما يروض به هذا الكائن البشري..)^(٢)؛ ويكتفي الباحث هنا في الدلالة على اثر الصوم في البناء المادي لجسم الإنسان بقول الصادق الأمين النبي (ﷺ): (صوموا تصحوا)^(٣)، فهو كلام جامع مشعر بعموم الصحة.

(١) للتوسعة في الأثر الصحي للصوم على جسم الإنسان بجميع تفصيلاته ط: د. عبد الجواد الصاوي، الصيام معجزة علمية، دار القبلة، عمان، ١٩٩٢م، د. فاهم عبد الرحيم وآخرون، تأثير الصيام الإسلامي على مرضى الكلى والمسلك البولوية، نشرة الطب الإسلامي، أعمال وأبحاث المؤتمر العالمي الرابع عن الطب الإسلامي، منظمة الطب الإسلامي، الكويت، ١٩٨٦م، العدد ٤، د. إدريس بني يوسف، الصوم، دار القلم، بيروت، (دت)، د. عبد الحميد دياب وآخرون، مع الطب في القرآن الكريم، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط٢، ١٩٨٢م.

(٢) في ظلال القرآن، ١/١٦٧.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ٥٩/٢٦٧، المتقي الهندي، كنز العمال، ٨/٤٥.

إذن للصيام الحقيقي أثر واضح في بناء الإنسان، وله بهذا فوائد عديدة، منها ما نلمسه ومنها مما سوف تكشفه الأيام وعلى مستويات الإنسان كافة، فهو يزيد من حماس الإنسان المسلم لدينه وعقيدته والاهتمام بمصالح أمته، وترابط مجتمعه ونشر الألفة والمحبة بينهم، ذلك أن صيام شهر رمضان مدرسة متميزة يفتحها الإسلام كل عام للتربية العملية على أعظم القيم ورافع المعاني فمن اغتتمها وتعرض لنفحات ربه فيها فأحسن الصيام والقيام فقد نجح في الامتحان وخرج من هذا الموسم رابح التجارة مبارك الصفقة^(١).

فهو مدرسة عظيمة (متخصصة في تزكية النفوس، والسمو بالأرواح إلى معالي الأمور ومحاسنها، إن أعظم معاهد التعليم والثقافة والفلسفة عجزت عن تخرج ما خرج الصوم، وتهذيب ما هذب، ولا غرو فهي شريعة الله الخالدة التي صنعها يد العليم بالنفوس الخبير بالطبائع)^(٢). يقول السيد محمد حسين فضل الله: (إن قضية الصيام، هي أن تكون إنسان الله، بدلاً من إن تكون إنسان الشيطان... إن تعرف كيف تعيش سكينة الروح وطمأنينة القلب، بدلاً من أن تحترق بنار الشهوة... وسعار الأطماع)^(٣). ومن ثم فهو سبحانه يبني الإنسان وفق منهج متكامل الأبعاد من خلال فريضة عبادة الصيام فهي مدرسة روحية وخلقية واجتماعية وصحية يتزود منها الإنسان الصائم ما يحتاجه في حياته كلها، وفي كل شؤونه ومسؤولياته نحو نفسه، ونحو خالقه ونحو أسرته فهو بناء متكامل.

(١) ظ: د. يوسف القرضاوي، فقه الصيام، دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٠هـ: ٣١٣.

(٢) عبد اللطيف مشتغري، مدرسة الصوم، دار الاعتصام، القاهرة، ط ٥، ١٤٠٤هـ: ٤٨.

(٣) شهر رمضان رحلة الإنسان إلى الله، ص ١٥.

(١٣٨) الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

الفصل الخامس

فريضة الحج وأثرها في بناء الإنسان

(١٤٠) الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

العبادات من أعظم ما يتقرب به إلى الله تعالى، وتتجلى أهمية العبادات في أن يباشرها الإنسان بنفسه ليتحقق الأثر البنائي منها سواء الإيمانية منها أو الأخلاقية أو الاجتماعية، فيستشعر في أثنائها قدرة الخالق وجلاله وعظمته، ويتذوق حلاوة معانيها مع كل حركة أو كلمة أو خطوة أو نفقة.

هكذا أراد الخالق للعبادات أن تكون، تباشر الذات وتسكب فيها العبرات، وتشد إليها الرجال والعبادة كما هو معلوم أنواع منها ما هو مالي محض كالزكاة، ومنها ما هو بدني كالصلاة والصيام، ومنها ما هو قولي وقلبي، مثل شهادة التوحيد التي هي ذكر وإقرار بالقلب، ومنها ما يجمع كل ذلك كعبادة الحج؛ وفي هذا المعنى يقول المقداد السيوري: (والحج من أعظم أركان الإسلام وأفضلها؛ لأنه تكليف شاقّ جامع بين كسر النفس وإتاعاب البدن وصرف المال والتجرد عن الشهوات والإقبال على الله)^(١).

وفي أهمية عبادة الحج في الدين الإسلامي وكونه فريضة لها أبعادها، يقول السيد محمد حسين فضل الله: (الحج من العبادات الإسلامية التي أَرادها الله للناس، ليحققوا من خلالها النظرة الشاملة لقضية الإنسان في الحياة، فقد جعله الله فريضة

(١) كنز العرفان في فقه القرآن، ص ٢٤١، ظ: د. يوسف القرضاوي، الحج العبادات الظاهرة والباطنة، مجلة رسالة التقريب، تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، العدد ٧٦، ٢٠٠٩م، ١٥٩.

على كل من استطاع إليه سبيلاً، واعتبر تركها خروجاً على عمق الالتزام الإسلامي، حتى جعل التارك لها في حكم الخارج عن الإسلام^(١).

وستتناول فريضة الحج في مطلبين بعد بيان معنى الحج في اللغة والاصطلاح

وعلى النحو التالي:

١- في اللغة: مصدر قولهم حجَّ يحجُّ وهو مأخوذ من مادة (ح ج ج) التي تدل

على أربعة معان:

أ- القصد ، وكل قصد حج.

ب- الحجَّة وهي السنة.

ج- الحجاجُ (بفتح الحاء وكسرهما)، وهو العظم المستدير حول العين.

د- الحَجَّجَةُ بمعنى النكوص والحجَّ المذكور هنا إنما يرجع إلى المعنى الأول، وهو

القصد أو القصد للزيارة، يقال: رجل محجوج أي مقصود، وحجه يحجه حجاً: قصده، وقد

حج بنو فلان فلاناً إذا أطالوا الاختلاف إليه^(٢).

٢- في الاصطلاح: قال الجرجاني: (قصدٌ لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة،

في وقت مخصوص بشرائط مخصوصة)^(٣)، ويقول السيوري: (إنه القصد إلى بيت الله

بمكة مع أداء مناسك مخصوصة في مشاعر مخصوصة هناك)^(٤).

(١) الحج عبادة وحركة وسياسة، مجلة رسالة التقريب، عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، العدد ٧٦، ٢٠٠٩م، ص ١٤٣.

(٢) ظ: ابن منظور ، لسان العرب: ٣٠/٢، والرازي، مختار الصحاح: ١٢٢-١٢٣.

(٣) كتاب التعريفات: ١٦٥.

(٤) كنز العرفان في فقه القرآن: ٢٤.

والظاهر أن التعريف الثاني أكثر شمولية ودقة، إذ إن التعريف الأول أهمل المشاعر، فلزم خروج عرفة ومناسك منى.

المبحث الأول: رؤية عامة في الحج

أولاً: أدلة وجوب الحج:

١. في القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَكَرُمُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴾^(١). ففي هذه الآية دلالة واضحة على أن الجاحد لهذه الفريضة كافر، فهو حق واجب لله تعالى في رقاب الناس^(٢).
٢. في السنة الشريفة: يقول النبي (ﷺ): (من لم تحبسه حاجة ظاهرة من مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحج، فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً)^(٣). ومن خطبة لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال فيها: (فرض عليكم حج بيته الذي جعله قبلة للأنام يردونه ورود الأنعام وبألهون إليه ولوه الحمام)^(٤)، ودلالة الوجوب على عبادة الحج واضحة في أنها فرض على الناس جميعاً مما لا ريب فيه ولا شبهة.

(١) سورة آل عمران: ٩٦-٩٧.

(٢) ظ: الزمخشري، الكشاف: ١/١٨، الطبرسي، مجمع البيان، ٢/٢٦٧، والرازي، مفاتيح الغيب: ١٣٣/٨. أما بخصوص المرأة فقد أجمعت المذاهب الأربعة ما خلا الأحناف إلى عدم اشتراط وجود المحرم معها، ويكتفي بغلبة ظنها بالسلامة. للتوسعة ظ: د. محمد حسين الصغير، محاضرات في تفسير آيات الأحكام، طبع الكتاب على نفقة جامعة الكوفة، ط٤، ٢٠٠٧، ص ٢٩.

(٣) البيهقي، السنن الكبرى: ٤/٣٣٤، والمتقي الهندي، كنز العمال: ١٦/٥.

(٤) نهج البلاغة، شرح محمد عبده: ١/٢٧. والمجلسي، بحار النوار: ٩٦/١٥.

ومن الجدير بالذكر ان أداء الحج الواجب هو مرة واحدة فقط في حياة الإنسان، يقول المحقق الحلي: (ولا يجب بأصل الشرع إلا مرة واحدة، وهي حجة الإسلام، وتجب على الفور، والتأخير مع الشرائط كبيرة موبقة)^(١).

ثانياً: مناسك الحج في ظلال القرآن الكريم:

ذكر القرآن المجيد مناسك الحج في آيات متعددة، وهي:

- الإحرام: قال تعالى: ﴿ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾^(٢)، ورجل حرام ومحرم بمعنى، وحلال ومحل كذلك وأحرم الرجل دخل في الشهر الحرام، وأحرم أيضاً دخل في الحرم، وأحرم أهلاً بالحج، والحرم الإحرام^(٣).

- محرمات الإحرام: قال تعالى: ﴿ فَمَنْ رَضَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾^(٤)، والرفث الفحش من الكلام والفسوق الخروج عن أحكام الشرع والجدال المراء^(٥)، وهذه المحرمات الثلاث هن من المحرمات حتى في غير أوقات الحج، وإن سبب التأكيد على الاجتناب في موسم الحج من باب الأولى ظاهراً، وإن مرتكبها أثناء الحج يبطل حجه.

(١) شرائع الإسلام، ١/١٧١.

(٢) سورة المائدة: ٩٦.

(٣) ظ: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٢٣٠، ومحمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٧/٦.

(٤) سورة البقرة: ١٩٧.

(٥) للتوسعة ظ: الزمخشري، الكشاف، ١/٢٧٠، البغوي، معالم التنزيل وحقائق التأويل، ١/١٥٥.

ومن المحرمات الأخرى على المحرم قتل الصيد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾^(١).

- الطواف: قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(٢)، وهنا المراد منه الدوران حول الشيء^(٣).

- صلاة الطواف: قال تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(٤)، وظاهر الآية تدل على (أن المقام هو مقام إبراهيم المعروف الكائن قرب الكعبة،... وعلى الحجاج أن يصلوا خلفه بعد الطواف، ومن هنا كان المقام مصلى)^(٥).

- السعي: قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(٦)، وفي الآية تشريع السعي بين الصفا والمروة، لا لأيفادة النذب وهذا السعي من بقايا دين إبراهيم الخليل (عليه السلام) دخلته الوثنية^(٧).

- الوقوف بعرفات: قال تعالى: ﴿أَفْضَلُكُمْ مِنَ عَرَفَاتٍ﴾^(١)، ومن مناسك الحج الوقوف على جبل عرفات^(٢).

(١) سورة المائدة: ٩٥، للتوسعة في ماهية هذا التحريم بالقتل، ظ: الطبرسي، مجمع البيان: ٣٣٥/٣، والرازي، مفاتيح الغيب: ٢/١٢.

(٢) سورة الحج: ٢٩.

(٣) ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣١٨/١، والرازي، مختار الصحاح: ٤٠٠،

(٤) سورة البقرة: ١٢٥.

(٥) ظ: ناصر مكارم الشيرازي، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ٢٧٠/١.

(٦) سورة البقرة: ١٥٨.

(٧) ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣١٩/١.

- الوقوف بمزدلفة والمشعر الحرام: قال تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾^(٣)، يقول الزمخشري: (معناه مما يلي المشعر الحرام قريباً منه، وذلك للفضل، كالقريب من جبل الرحمة، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي مخسر، أو جعلت أعقاب المزدلفة لكونها حكم المشعر ومتمثلة به عند المشعر، والمشعر: المعلم، لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرم لحرمة)^(٤).

- الإفاضة إلى منى، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(٥)، ظاهره إيجاب الإفاضة على ما كان من دأب الناس وإلحاق المخاطبين في هذا الشأن بهم، فينطبق على ما نقل من أن قريشاً وحلفاءها وهم الحمس كانوا لا يقفون بعرفات، بل بالمزدلفة، وكانوا يقولون: نحن أهل حرم الله لا نفارق الحرم، ويتعاضمون أن يقفوا مع سائر الناس بعرفات، ثم الإفاضة إلى منى^(٦).

(١) سورة البقرة: ١٩٨.

(٢) ولسبب التسمية لجبل عرفات بد(عرفات) آراء منها سمي بذلك لعلو الناس فيه على جباله، والعرب تسمى ما علا عرفة، ومنه سمي عرف الديك لعلوه، وقيل سمي بذلك لأن الناس يعترفون في ذلك اليوم بذنوبهم، وقيل سمي بذلك من العرف، وهو الطيب... وللتوسعة في هذه الآراء، ظ: الطوسي، الخلاف: ١/٢.

(٣) سورة البقرة: ١٩٨.

(٤) الكشف: ٢٧٤/١، وفي وجوب الكون في المشعر الحرام وعدمه خلاف، ظ: الطوسي، الخلاف: ١/٢.

(٥) سورة البقرة: ١٩٩.

(٦) ظ: البغوي، معالم التنزيل: ١/١٥٨، محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٦٦/٢.

- الهدى: قال تعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾^(١)، ونحر البدن^(٢) من شعائر الله (بمعنى أن نحرها مع كونها كثيرة النفع والخير، وشدة محبة الإنسان للمال من أدل الدلائل على قوة الدين وشدة تعظيم أمر الله)^(٣)، ففي ذبحها خير الدنيا والدين^(٤).

- تقصير الشعر: قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾^(٥)، يقول المقداد السيوري: (إن بعض أصحابنا قال: إن الحلق متعين على الصلوة والملبّد لشعره، وأما غيره فهو مخير بين الحلق والتقصير والحلق أفضل)^(٦).

- الإحلال: قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾^(٧)، وهنا أمر بالإحلال وإباحة الصيد، بعد أن كان حراماً حال الإحرام^(٨).

- أيام منى: وهي أيام التشريق، أي اليوم الحادي عشر واليوم الثاني عشر واليوم الثالث عشر من ذي الحجة، قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾^(٩)،

(١) سورة الحج: ٣٦.

(٢) البدن: جمع بُدْنه، ناقة أو بقرة تُنحر بمكة، سميت بذلك لأنهم كانوا يسمّونها، الرازي، مختار الصحاح: ٤٤.

(٣) المقداد السيوري، كنز العرفان في فقه القرآن: ٢٨٤.

(٤) ظ: القاسمي، محاسن التأويل: ٢٩٠/٧.

(٥) سورة البقرة: ١٩٦.

(٦) كنز العرفان في فقه القرآن: ٢٨٤.

(٧) سورة المائدة: ٢.

(٨) ظ: مقداد السيوري، كنز العرفان في فقه القرآن: ٣٠١، والآلوسي، روح المعاني: ٣١٢/٦.

(٩) سورة البقرة: ٢٠٣.

ولسبب هذه التسمية (أيام التشريق) آراء منها: لتشرق لحوم الأضاحي فيها، وقيل: لشرق القمر فيها طول الليل، أو لأن الهدى لا ينحر حتى تشرق الشمس، ويراد بالذكر هنا التكبير^(١).

ثالثاً: منزلة مكة المكرمة وأهمية الحج:

ولمكة المكرمة مكان فريضة الحج، فضل عظيم، وسمو كبير على سائر البقاع على وجه البسيطة، ويمكن أن نلاحظ هذا الفضل في مواضع عديدة من القرآن المجيد منها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، ففي هذه الآية الكريمة دلائل واضحة على علو منزلة مكة المكرمة، فكانت الكعبة (اسبق بيوت لعبادة الحق، وهي اسبق من بيت المقدس بتسعة قرون، فان إبراهيم بنى الكعبة في حدود سنة ١٩٠٠ قبل المسيح وسليمان بنى بيت المقدس سنة ١٠٠٠ قبل المسيح، والكعبة بناها إبراهيم بيده فهي مبنية بيد رسول، وأما بيت المقدس فبناها العملة لسليمان بأمره)^(٣)، ومنها أنها أرض باركها الله سبحانه بكثير من الخيرات والمنافع، وهذه الإفاضة الإلهية شاملة للبركات الدنيوية والأخروية والمعنوية والمادية، ف) هذه المدينة رغم أنها أقيمت في أرض قاحلة لا ماء فيها ولا عشب، ولا صلاحية فيها للزراعة والرعي، بقيت على طول التاريخ واحدة من أكثر المدن عمراناً وحركة وكانت دائماً من المناطق المؤهلة، خير تأهيل للحياة، بل للتجارة أيضاً^(٤).

(١) ظ: المقداد السيوري ، كنز العرفان في فقه القرآن: ٢٨٥.

(٢) سورة آل عمران: ٩٦.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٦١/٣.

(٤) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤٠٥/٢، وظ: محمد رشيد رضا،

تفسير المنار: ٩/٤.

يقول ابن عاشور: (جُعِلَت البركة فيه - البيت العتيق - بجعل الله تعالى، إذ قَدَّر ان يكون داخله مُثاباً ومحصلاً على خير يبلغه على مبلغ نيته، وقَدَّر لمجاوريه وسكَّان بلده ان يكونوا ببركة زيادة الثواب ورفاهية الحال، وأمر بجعل داخله آمناً، وقَدَّر ذلك بين الناس فكان ذلك كلّه بركة)^(١).

ومنها كونه هدى للعالمين، فتكمن هذه المنزلة في (إرادته للناس سعادة آخرتهم وإيصاله إياهم إلى الكرامة والقرب والزلقى، بما وضعه الله للعبادة، وبما شرع عنده من أقسام الطاعات والنسك، ولم يزل منذ بناه إبراهيم مقصداً للقاصدين ومعبداً للعابدين)^(٢). ففيه ومنه انطلقت الدعوة إلى هداية الناس للتوحيد، بعد أن تنزلت الشرائع السماوية عليه، فهو أو بيوت الله وأعظمها عند الله تعالى وبه ختمت هذه الشرائع الإلهية عندما ختمت بخاتم الأنبياء وسيدهم (ﷺ) فهو الأول في الهداية والآخر فيها.

ونلاحظ فضل مكة أيضاً في قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا بُرَّهِيَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾^(٣)، وذكر الإمام جعفر الصادق (ﷺ) ثلاثة من الآيات (الدلائل - البيّنات - الواضحة)، عند تفسيره الآية الكريمة، الأولى: مقام إبراهيم (ﷺ) حين قام على الحجر أثر قدماه فيه، والثانية: الحجر، والثالثة: منزل إسماعيل (ﷺ)^(٤).

(١) التحرير والتنوير، ١٦١/٣.

(٢) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٠٧/٣.

(٣) سورة آل عمران: ٩٧.

(٤) ظ: الكليني، الكافي: ٢٢٣/٤.

وقد اقتصر بعض المفسرين^(١) هذه الآيات على آية واحدة بينة وهي آية مقام إبراهيم (عليه السلام)، ولعلمهم استدلوا بذلك على قراءة ابن عباس إذ قرأ: (فيه آية بينة مقام إبراهيم)^(٢)، أو من قول أبي طالب (عليه السلام):

وموطئ إبراهيم في الصخرة رطبة على قدميه حافياً غير ناعل.^(٣)

وقد زاد بعض المفسرين على هذا آيات، فقالوا: مقام إبراهيم، والحجر الأسود، والحطيم^(٤)، وزمزم، والمشاعر كلها، وأركان البيت، وازدحام الناس عليها، وتعظيمهم لها^(٥)، وأضاف البغوي إلى الآيات في البيت: (إن الطير تطير فلا تعلق فوقه، وأن الجارحة إذا قصدت صيداً، فإذا دخل الصيد الحرم كفت عنه، وأنه صدر إليه الأنبياء والمرسلون والأولياء والأبرار، وأن الطاعة والصدقة فيها تضاعف بمائة ألف)^(٦).

أما محمد رشيد رضا والعلامة الطباطبائي فذهبا إلى أن الأقسام الثلاثة - مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً، والله على الناس - هن الآيات البيئات^(٧) ومنها تكمن منزلة مكة المكرمة وعلو شأنها، يقول الطباطبائي: (وأي علامة دالة عليه تعالى مذكرة

(١) ظ: الزمخشري، الكشاف، ٤١٥/١، الرازي، مفاتيح الغيب، ١٣١/٨، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٩٠/١، القاسمي، محاسن التأويل، ٧٢٥/٢.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان، ٢٦٦/٢.

(٣) ابن هشام الحميري (ت ٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: محمد محي الدين حميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، ١٩٦٣، ١٧٧/١، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٩٠/١.

(٤) سئل الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) عن الحطيم؟ فقال: (هو ما بين الحجر الأسود والباب، قيل: ولم سمي الحطيم؟ قال: لأن الناس يحطم بعضهم بعضاً هناك)، الكليني، الكافي: ٥٢٧/٤، يقول الطبرسي: (وهو المكان الذي تاب الله به على آدم)، مجمع البيان، ٢٦٧/٢.

(٥) ظ: البغوي، معالم التنزيل: ٣١٥/١، والطبرسي، مجمع البيان: ٢٦٧/٢.

(٦) معالم التنزيل: ٣١٥/١، وقريب من هذه الفضائل، ظ: الرازي، مفاتيح الغيب: ١٢٧/٨.

(٧) ظ: تفسير المنار: ١٠/٤، والميزان في تفسير القرآن: ٣١٠/٣.

لمقامه أعظم وأجلى في نظر أهل الدنيا من موقف إبراهيم ومن حرم آمن يأمن من دخله ومن مناسك وعبادات يأتي بها الألوفاً بعد الألوفاً من الناس تتكرر بتكرار السنين، ولا تتسخ بانتساخ الليالي والأيام^(١)؛ وهذا كله تشريع من الله سبحانه سنة إعظاماً لموضع بيته العتيق وابتلاء للناس لا على وجه الأعجاز والخوارق ولا سيما في الآية الثانية، ومن دخله كان آمناً، إذ آمن فيه اللاجئ المستجير، وأوجب على الناس حرمة اللذائذ به تعظيماً لمنزلة مكة وشرفها وقدسيته، وهذا الأمن قد استيقنته العرب في جاهليتها الظلماء، وعظمت شأن الحرم المكي وهي لم تكن قد أسلمت بعد وإنما توارثته كابراً عن كابر، يقول القاسمي: (وكانت العرب في جاهليتها، يرى الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم فلا يهيجه، وكان ذلك بينهم خاصة الحرم التي صار بها حرماً، ثم جاء الإسلام فأكد ذلك وقواه)^(٢).

هكذا كانت حرمة بيت الله تعالى عند العرب، من قبل أن يشرع الإسلام الأمن والأمان في بيت الله الحرام، والمسلمون مطالبون اليوم بتفعيل هذا التشريع والشرف الذي فضل الله سبحانه هذه البقعة من دون سواها^(٣)، والعمل على الاقتداء بسيرة

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣١٠/٣.

(٢) محاسن التأويل: ٧٢٧/٢.

(٣) يقول السيد محمد رشيد رضا: (وإن ما يفعل الآن في الحرم من الظلم والإلحاد المستمر لم يسبق له نظير في جاهلية ولا إسلام، ولا ضرورة ملجئة إليه، وإنما هي السياسة السوءى قضت بتفسير الناس من أمراء مكة وشرفائها، وإبعاد عقلاء المسلمين عنها حتى لا يكون للمسلمين فيها قوة في الدين ولا في العلم والرأي)، تفسير المنار: ١١/٤.

الصالحين في حفظ حرمة مكة المكرمة وتعظيمها وصيانتها من أن تهتك^(١)، ولعل وجوب القصد إليها من أبرز دلائل منزلتها.

وفي سنة المعصوم نلحظ منزلة مكة المكرمة، إذ يقول النبي (ﷺ): (إن مكة حرمتها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله (ﷺ) فيها فقولوا له: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب)^(٢).

كما أن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) لم يفارق الدنيا إلا وأكد على أهمية مكة، واهتمامه بترسيخ هذه المعالم في وصيته لولديه، إذ قال: (الله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا)^(٣)، وأخذت هذه الوصية الكريمة أبعادها في وعي ومشاعر الحسن والحسين (عليهما السلام)، وأنعكس أثرها المباشر على كثرة الحجج من قبلهما حيث حج كل منهما عشرين حجة ماشياً على قدميه^(٤)، وقد حفظ أبناء الإمام الحسين (عليه السلام) وصايا جدهم الرسول (ﷺ)، فقاموا بدور بارز في ترسيخ هذه الشعيرة

(١) ومن هذه الصيانة لحرمة بيت الله، أن الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) قد خرج منها في يوم التروية الثامن من ذي الحجة، بعد أن علم أن بني أمية لا يرقبون في دين الله سبحانه إلا ولا ذمة في قتلهم إياه، في حرمتها الأمن في شرع الله تعالى، وحتى لا تفقد مكة هيبتها في نفوس المسلمين إذا ما وقع المحذور فيها، وقد قال: (لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن أقتل بمكة وتستحل بي حرمتها)، ظ: الطبري، تاريخ الطبري: ٢١٧/٦ والطبراني (ت ٣٦٠هـ) المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد الحميد السلفي، دار إحياء التراث، ط ٢، ١٢٠/٣ وابن كثير البداية والنهاية: ١٧٤/٨.

(٢) البخاري، صحيح البخاري: ٣٥/١، ط: الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤٠٦/١٢.

(٣) نهج البلاغة، شرح: محمد عبده: ٧٧/٣، الكليني، الكافي: ٥١/٧.

(٤) ط: الكليني، الكافي: ٥٢٨/١.

في قلوب المسلمين، ونقلوا إليهم الجانب الحركي بهذه الشعيرة المقدسة، حيث جاء في أحاديثهم (عليه السلام) قولهم: (لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة)^(١)، وقولهم: (لو عطلوه سنة واحدة لم يناظروا)^(٢)، وقولهم أيضاً: (لو عطل الناس الحج لوجب على الإمام أن يجبرهم عليه إن شاعوا وإن أبوا، فإن هذا البيت إنما وضع للحج)^(٣).

ومن هذه الدلائل البينة في منزلة مكة المكرمة تتضح أهمية الحج إذ جعل رمزاً لتعظيم هذا البيت الحرام في نفوس الناس، فمن مكة أنطلقت قديماً بشائر التوحيد، ومنها في حجة الوداع - البلاغ^(٤) - رسم مستقبل الأمة الإسلامية، ودعائم بشائر التوحيد وحركتها وديناميتها، لتبني إنسان اليوم المتصل غده بأمره. وبكلمة فإن (كل ما ضبطته الكتب في فضائل البيت العتيق والطواف حوله، والوقوف في تلك المشاعر العظام ليس إلا كقطرة من البحر، ولمعة من الشمس، وماذا يقال في بيت جعله الله مباركاً وهدى المسلمين...) (٥).

(١) المصدر نفسه: ٢٦٨/٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٢٦٩/٤.

(٤) إذ نصب رسول (ﷺ) ويأمر من الله تعالى علي بن أبي طالب ولياً على الناس من بعده، فأبلغ هذه الإمارة - الولاية - بقوله (ﷺ): (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وآل من وآله، وعادي من عاداه - ثلاث مرات-)، الكليني، الكافي، ٢٩٤/١، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ١/١١٨، للتوسعة ظ: الشيخ محسن الاميني (ت ١٣٩٢هـ)، موسوعة الغدير، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٧٧م.

(٥) السيد عبد الأعلى السبزواري، حسين نجيب، جمال السالكين: ١٧٨، وقريب من هذا المعنى ظ: محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ١٥/٤.

رابعاً: حقيقة الحج:

الحج من العبادات التي تؤكد الأمر من الله تعالى بأدائها، وهذا الأداء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحركة الأنبياء، والملاحظ أن هذه الحركة هي دعوة وإقامة للإصلاح، وأجلى تجليات هذا الإصلاح ورأسه هو تحقيق التوحيد، إذ أن (كل دعوات الأنبياء تتلخص في التعبيد لله تعالى، ولزوم صياغة الحياة كلها وفق أوامره وعجله، وقوله ﷻ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(١) يرددها كل الأنبياء دون استثناء، والدعوة للتوحيد هي روح كل كلماتهم...^(٢) .

ونلاحظ أنه سبحانه بعد النهي عن القبيح يُحسِّن إلى الإنسان فعل الجميل: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾^(٣)، فيشعر الإنسان أن ما يفعله من خير يعلمه الله ويطلع عليه، وهذا بطبيعة الحال حافز على فعل الخيرات، وبعد هذا تركز حقيقة الحج الكبرى على التقوى، وهي أساس مشترك في العبادات كافة، والتزود منها مما حثت عليه الآية في موسم الحج: ﴿وَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٤)، فالتقوى زاد القلوب والأرواح ومنه تستمد وبه تتشط، وعليه تركز في

(١) سورة الأعراف، الآية ٦٥.

(٢) محمد علي التسخيري، الحج وتحقيق هدف الأنبياء، مجلة رسالة التقريب، طهران، العدد ٧٦:١٧٥.

(٣) سورة النساء، الآية ١٢٧.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٧.

الوصول إلى النجاة، وأول من يدرك التوجيه إلى التقوى هم أولو الألباب، وهم خير من ينتفع بهذا الزاد في تقويم قوى النفس الإنسانية^(١).

فبالمضمون الداخلي للحج تتحقق معاني الحج (لا من خلال الشكل الخارجي الذي يؤديه الكثيرون بدون روح وبدون معنى ممن يعيشون الحج عادة وتقليداً وسياحة وتجارة، فينطبق عليه ما ورد عن أحد الأئمة أهل البيت عندما نظر إلى الجموع المحتشدة في الموقف، أو في بيت الله فقال: "ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج"^(٢)، إذ لا قيمة للعدد إذا لم يكن متحركاً في عمق القيم الروحية في الحياة، فرب رقم صغير يحقق للإنسانية معنى كبيراً هو أفضل من رقم كبير لا يحقق شيئاً للحياة إلا زيادة في الساحة والحجم على صعيد الأرض من هؤلاء الذين يكونون عبئاً على الحياة بدلاً من ان يكونوا قوة لها)^(٣)، فالحج بالجواهر لا بالمظهر، والمظهر دليل على عمق الجوهر وصدقه، ويعد تجلياً له بكل ما فيه من تفاصيل للمناسك.

(١) ظ: الرازي، مفاتيح الغيب: ١٤٢/٥، وسيد قطب، في ظلال القرآن: ١/١٩٧، وناصر مكارم الشيرازي، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٧/٢.

(٢) الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام)، ظ: المجلسي، بحار الأنوار: ١٢٤/٢٤. وقريب من هذا المعنى ما كان قد نبه إليه النبي الخاتم (ﷺ) من ضرورة وأهمية الالتزام بحقيقة أداء مناسك الحج، وجعلها إقامة لها، وإلا فإن التجرد من حقيقة الحج وجوهره يكون ما حذر منه (ﷺ) من مفاصد آخر الزمان من ابتعاد الناس عن حقيقة الحج، وهذا ما نلحظه في قوله (ﷺ): (يحج أغنياء أمتي للنزهة، ويحج أوساطها للتجارة، ويحج فقراؤهم للرياء والسمعة)، المجلسي، بحار الأنوار، ٦/٣٠٨.

(٣) محمد حسين فضل الله، الحج عبادة وحركة وسياسة، ص ١٤٥.

المبحث الثاني: أثر الحج في بناء الإنسان

لعبادة الحج أهداف عظيمة وثمار ناضجة لمن أقام هذه الفريضة بشرطها وشروطها وبطبيعة الحال فإن الجاني لهذه الثمرة والمتأثر بما تتركه من آثار هو الإنسان وحده لا غير، فالله سبحانه غني عنه وعنهما، قال سبحانه في ذيل آية فرض عبادة الحج: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، (ف) الذين يتجاهلون هذا النداء، وينكرون هذه الفريضة ويخالفونها لا يضررون بذلك إلا أنفسهم لأن الله غني عن العالمين، فلا يصيبه شيء بسبب إعراضهم ونكراهم وتركهم لهذه الفريضة... وعلى كل حال فإنه يستفاد من هذه الآية أمران:

الأول : الأهمية الفائقة لفريضة الحجّ، إلى درجة أن القرآن عبّر عن تركها بالكفر....

الثاني : إن هذه الفريضة الإلهية المهمة - مثل بقية الفرائض والأحكام الدينية الأخرى - شرعت لصالح الناس، وفرضت لغرض تربيتهم، وإصلاح أمرهم وبالهم أنفسهم، فلا يعود شيء منها إلى الله سبحانه أبداً، فهو الغني عنهم جميعاً.^(٢) وسوف نقف في هذا المطلب على أبرز معالم البناء الذي تُحدّثه فريضة الحج في الإنسان المقيم لها، وعلى النحو التالي:

أولاً : الحج امتثال لأمر الله تعالى - كسائر العبادات - فالشارع قد أمر بالحج على سبيل الفرض، وما على العبد إلا أن يمتثل أمر الشارع في كل ما أمر، بغض

(١) سورة آل عمران، ٩٧.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي، الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل، ٢/٤٠٩، ظ: جوادى أملي، مناسك الحج : سر العبادة، مجلة ميقات الحج، طهران، السنة ١٥، رجب، ١٤٢٩هـ، العدد ٣٠،

النظر عن أي فائدة متوخاة منه، وبهذا فـ (الحج طريق لتحقيق نيل العبد رضا الله ومغفرته بسبب امتثال أوامره واجتتاب نواهيه امتثالاً يعلن الخضوع والهيبة والخشوع، فالحج رياضة للوجدان على طاعة الرحمان) (١).

والحج بهذا الامتثال إخلاص لله سبحانه، فهو تحقيق للتوحيد والبراءة من الشرك، لأن الله تعالى ما أمر ببناء البيت إلا لذلك، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٢)، ففوله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أي لا تجعل في العبادة لي شريكاً، ولا تشرك أي غرض آخر في بناء البيت، ليكون خالصاً للذين يعبدون الله وحده لا شريك له، (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ) هو تطهير من الشرك والأوثان. (٣)

وكذلك نلاحظ أن سائر مناسك الحج مبنية على العبودية الخالصة لله تعالى، واتباع أمره، واجتتاب نهيه، حتى وان خفيت بعض أوجه الحكمة فيه، فلو كان اتباع كل أمر واجتتاب كل نهى متوقفاً على معرفة الحكمة وفهمها والاعتناع بها لتعطلت كثير من

(١) د.أحمد برج، أثر العبادات في وحدة المجتمع الإسلامي، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص ٢٥٠.

(٢) سورة الحج، ٢٦.

(٣) ظ: الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ١٦٨/١٧، الطبرسي، مجمع البيان، ٩٩/٧، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢٢٢/٣، ويبدو أن محمد الأمين الشنقيطي قد بالغ في المراد من التطهير في الآية أعلاه إذ عد دخول المصورين للبيت الحرام منافياً للتطهير، فقال: (ولا شك أن دخول المصورين في المسجد الحرام حول البيت الحرام بالالتصوير يصورون بها الطائفين والقائمين والركع السجود: إن ذلك مناف لما أمر الله به من تطهير بيته الحرام..!!)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٣ / ١٩٩.

الأوامر والنواهي، لأن ما يفهمه البعض، لا يفهمه آخرون، وما فيه مقنع للبعض لا يقنع البعض الآخر.^(١)

والظاهر أن سبب عدم الوقوف على معرفة الحكمة والغيبية في كثير من الأعمال العبادية ومنها مناسك الحج خصوصاً هو تأكيد لجانب الإخلاص لله تعالى من دون إشراك دافع آخر فيها، والتزام الطاعة الخالصة، وهذا ما يُلفت نظرنا إليه السيد الشهيد محمد باقر الصدر في قوله: (إذا كان العمل الذي يمارسه العابد مفهوماً بكل أبعاده واضح الحكمة والمصلحة في كل تفاصيله تضاعل فيه عنصر الاستسلام والانقياد، وطغت عليه دوافع المصلحة والمنفعة، ولم يعد عبادة لله بقدر ما هو عمل نافع يمارسه العابد لكي ينتفع به ويستفيد من آثاره)^(٢).

ثانياً: البُعد الروحي :

١- للعبادات المفروضة في الإسلام غايات سامية - كما تقدم - في تقويم وتربية وتهذيب وإصلاح الإنسان، وفريضة الحج كسائر للعبادات المفروضة، فهو نبع حركي لهذه الغايات السامية والتي من مظاهرها:

(١) ظ: د. عادل بن علي الشدي، مقاصد الحج في القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، السعودية، ذو العقدة، ١٤٢٩هـ، العدد ٤٤، ص ١٨، أبو الحسن الندوي، وأذن في الناس بالحج، الهند، المجمع الإسلامي، ط٣، ١٩٨٠م، ص ١٩.

(٢) نظرة عامة في العبادات، ص ٥٣، وحتى ما اتضح من أسرار مناسك الحج إجمالاً، فإن أُلِّفت للنظر فيه إنها لا تخرج في كونها من معالم الإخلاص لله تعالى والطاعة، للتوسعة في فلسفتها ظ: جوادى أملي، مناسك الحج: سرّ العبادة، ص ١٩..، حسين علي المصطفى، فلسفة العبادات، ص ٤٤٩، جمعية المعرفة الإسلامية الثقافية (إعداد ونشر)، أبعاد الحج في كلام الإمام الخميني، إيران، (دت)، ص ٦.

- بذل الجهد والمال، وفيه عنوان بارز لعملية الإيثار وكسر الأنانية في النفس، وتطهيرها من رذيلة البخل، فموسم الحج فيه حث على العطاء المباشر سواء على جانب القدرة والطاقة أو على جانب الإنفاق المالي، وهذا بالتالي يروض النفس على عدم الاتكال على الغير في تيسير أمورهم، واستشعار لفضيلة الكرم وهدم لحاجز الحرص الممقوت الذي تهواه النفس.

- حرمة الجدل في الحج، تربي الإنسان على تجاوز الذات وعدم اندفاعات النفس إلى رغباتها، فالجدل مما يحق به الإيمان، ويطفئ وهج الروح الإنسانية، مما يخلفه فيها من قسوة جراء الممارسة وحب الغلبة والظهور، ولا يُراد هنا بطبيعة الحال الجدل الذي مدحه القرآن المجيد في قوله تعالى: ﴿وَحَدِّ لَهُمْ يَا لَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)، وإنما الجدل المفضي إلى الخصومة والشحناء وما تقدم من آثار ظلامية على الروح.

يقول الشيخ حيدر حب الله: (ويجب أن يعرف نهاية أن الجدل كما فسرناه بمعنى النزاع والخصومة لا يشمل الحوار والحوارات العلمية والفكرية... الهادئة حتى لو لم نأخذ الصيغتين بعين الاعتبار، فلا ينبغي الخلط بين مفهوم الجدل في اللغة العربية وبين مفهوم الحوار الهادئ الذي يضارعه في المصطلح القرآني الجدل بالتي هي أحسن من بعض الوجوه)^(٢).

(١) سورة النحل، ١٢٥.

(٢) فقه الجدل في الحج دراسة فقهية استدلالية حول مفهوم الجدل وأحكامه القسم الأول، مجلة ميقات الحج، طهران، السنة ١٣، محرم، ١٤٢٧هـ، العدد ٢٥، ص ٩٠، وللتوسعة في أحكام الجدل القسم الأول ظ: نفس المجلة السنة ١٢، رجب، ١٤٢٦هـ، العدد ٢٤، ص ١٢٨. وللتوسعة في أهمية

- بذل الأضحية وما تحويه من أحساس بالمسؤولية وتمارين النفس على الانضباط الدقيق أمام الله سبحانه واستشعار الرقابة الغيبية، يقول تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾^(١)، فالغاية من الهدى هو التقرب إلى الله سبحانه، وإلا فإنه عجز غني عن الحج كلياً - كما تقدم - ولكن هذه الشعائر إنما هي تنفيذ لأوامره وشحن للتقوى بظهر الغيب، والـ (ربط بين الهدى الذي ينحره الحاج وتقوى القلوب، إذ إن التقوى هي الغاية من مناسك الحج وشعائره، وهذه المناسك والشعائر إن هي إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته. وقد تحمل في طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم (عليه السلام) وماتلاه. وهي ذكريات الطاعة والإنابة، والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة. فهي والدعاء والصلاة سواء)^(٢) في استشعار الرقابة الغيبية عند الإنسان.

- مراسم الإحرام، حيث تبعد الإنسان بشكل تام عن المتعلقات المادية والامتيازات الجوفاء، وتطلقه إلى عالم الصفاء في سياحة روحية إذ (يحرم النفس عن المشتبهات ويوقفها عن كافة الشهوات ويطرح عنها كلّ مشتبه وحرام عند خلعه الثياب عن الأبدان)^(٣)، وعند هذا تستمد الروح غذاءها الطبيعي فتتهل من خلال هذه الرياضة ما يكون رصيلاً لها للديمومة على هذا الحال من التوجه إلى الله تعالى في سائر أيام العمر المتبقية.

البناء العقلي للإنسان. ظ: للمؤلف، العلم في المفهوم القرآني، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد ٩، ٢٠١٠م، العددان ٣-٤، ص ٥٩.

(١) سورة الحج، ٣٧.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢/٢٤٢٢.

(٣) عبد الأعلى السبزواري، جمال السالكين، ص ٨٥.

يقول الشيخ محمد مهدي الأصفي: (وقد أفاد الحج الحجاج ضبط النفس بدرجة عالية، وبمقاييس واسعة وكبيرة في محرمات الإحرام، منذ لحظة التلبية إلى أن يخرج من حالة الإحرام. وإذا كان الحاج قد تحلّل من محرمات الإحرام بعد السعي، وطواف النساء والوداع، فإنّ خزين التقوى وضبط النفس الذي اكتسبه الحاج في هذه الدورة المكثفة يبقى معه)^(١).

إنّ لدورة الإحرام الغنية بالمعطيات تأثير كبير على بناء الشخصية الإنسانية، تشاهد نتائجها العملية الرائعة في المجتمع المعتقد والملتزم بمحتوى عبادة الحج والزيارة.

٢- في الحج مواقف رسالية أجراها سبحانه على لسان الصفاة من أنبيائه ورسله وأصفيائه، مما تجعل من هذه الفريضة عبادة مهمة لبناء الإنسان فتثير فيه الاهتمام بمواقف الأنبياء والمرسلين السابقين، وما تشحنه هذه المواقف من معنويات شاخصة وخاصة في شخصي إبراهيم الخليل (عليه السلام) والنبى محمد المصطفى (صلى الله عليه وآله)، وما بذلاه من جهود وتضحيات شاقة لإسقاط الصنمية السائدة في وعي المجتمع الجاهلي من خلال ترسيخ جذور التوحيد الإلهي الأصيل، التي نادى بها إبراهيم من قبل، وثبتها من بعده النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وقاسى من أجلها المحن العظمى.

فقد تكرر ذكر إبراهيم (عليه السلام) في القرآن المجيد تسعاً وستين مرة، وفي ست وعشرين سورة مع التركيز على الخصيصيتين الرئيسيتين له وهما: توحيده، وصراعه ضدّ الطاغوت، أما موقف النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله) من أجل الدعوة فلا يخفى أثره ولا تطمس معالمه، فعملية الحج ترتبط بأهداف الأنبياء (عليهم السلام) ونماذجهم القيادية خير

ارتباط، وهذه الأهداف الإجمالية للأنبياء (عليهم السلام) تمثل مجموعها الإسلام بجوانبه، فهي تعني^(١):

١- تركز العقيدة الإلهية بكل مقتضياتها في نفوس أبناء البشر، وتعمق المفاهيم التي تحدد مواقف الإنسان من الكون والحياة كلها، وإرجاع البشرية إلى فطرتها السليمة وتنمية هذه الفطرة.

٢- بناء بني الإنسان بناءً عاطفياً منسجماً مع العقيدة الإلهية الحقة، ونداءات الفطرة الصافية.

٣- إيصال التعاليم الإلهية إلى كل البشرية وإقامة الحجة عليها.

٤- قيادة تجربة تطبيق الشريعة الإلهية، وصياغة المجتمع العابد لله والسائر نحو كماله بشكل منسجم، وإقامة القسط والعدل وإثارة خزين العقول.

٥- مقارعة كل مظاهر الطاغوت والاستكبار، ونفي كل صورها المادية وكل قيودها الوهمية، وكل مطلقاتها الذهنية الكاذبة.

إذن من مواقف الأنبياء (عليهم السلام) تترسخ في النفس المؤمنة روح الهداية، وطريق الإيمان وإن كان عميق المدى فهو معبداً من لدن أفواج من الأنبياء (عليهم السلام) الذين ساروا عليه، ومنازل الحج مما يؤكد ذلك الارتباط بين الأنبياء وروح الإيمان الحقيقي الذي هو تمهيد لثورة روحية على الأوضاع التي خلفها ظل الاستعمار في أذهان المسلمين.

ثالثاً : الحج جزاؤه الجنة؛ ويكون ذلك عن طريق تكفير الذنوب والحصول على الثواب العظيم ومن ثم الدخول في الجنة ونعيمها جزاء هذا الحج، قال النبي (صلى الله عليه وآله):

(١) ظ: محمد علي التسخيري، الحج وتحقيق هدف الأنبياء (عليهم السلام)، مجلة رسالة التقريب، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، ذوالعقدة، ٢٠٠٩م، العدد ٧٦، ص ١٧٧، حسين علي المصطفى، فلسفة العبادات، ص ٣٦٥.

(العمره إلى العمره كفارة ما بينهما، والحجة المتقبلة ثوابها الجنة، ومن الذنوب لا تغفر إلا بعرفات) (١)، وقال أيضاً (عليه السلام): (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كهينة يوم ولدته أمه) (٢)، وقال الإمام محمد الباقر (عليه السلام): (من أعظم الناس ذنباً، من وقف بعرفات، ثم ظن أن الله لم يغفر له) (٣). وهذا يعني أن الحج يشتمل على (مجموعة عظيمة من الأعمال البدنية، والروحية التي إذا أديت على وجهها الصحيح انتهت بالمسلم إلى الدخول في جنة عرضها السماوات والأرض أعدّها الله لعبادة المتقين) (٤) الذين يتمثلون أوامره ويجتنبون نواهيه امتثالاً يعلن الخضوع والهيبة والخشوع، فيغتنم الحاج أعمال البر التي ثوابها عند الله تعالى الجنة.

ومما تجدر إليه الإشارة إن هذه التوبة الموجبة للجنة، تكون قبل بدء رحلة الحج التعبديّة، وهذه التوبة من مستلزمات الحج المبرور المقبول عند الله وعجل، فهي تُعد من أعظم الآثار التربوية لهذه الفريضة؛ لأنها تعمل على تخليص الإنسان من ذنوبه وتهذيب سلوكه إذ تتميز بأنها توبة صادقة، تتمثل في تعديل فكر الحاج وسلوكه تجاه خالقه ونفسه وغيره من البشر، ضمن إطار الشريعة الإسلامية، فينبغي لمن أراد السفر لأداء هذه الفريضة أن يهيئ نفسه لجلال المناجاة مع رب العالمين برد ما عليه من حقوق ومظالم إلى أهلها إن استطاع، فإن لم يستطع فعليه التوبة إلى الله تعالى

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ٥٠/٩٦، ظ: احمد بن حنبل، مسند احمد، ٤٤٧/٣.

(٢) احمد بن حنبل، مسند احمد، ٢٢٩/٢.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ١٣ / ٥٤٧.

(٤) محمد سالم محيسن، أركان الإسلام، ص ٢٢٥، ظ: محمد حسن أبو يحيى، أهداف التشريع

الإسلامي، ص ٣٧.

والاستغفار وتفويض الأمر إليه، وإن كانت الحقوق لله ﷻ فعليه بالتوبة والندم، والإقلاع عن الذنوب والمعاصي الكبيرة والصغيرة على حد سواء^(١).

رابعاً : البُعد السياسي: يُعد بيت الله الحرام مقرّ الاجتماع العالمي السنوي لكل مسلمي العالم ف(المسجد الحرام والمساجد الأخرى في زمان رسول الله الأكرم ﷺ) كانت مراكز عسكرية وسياسية واجتماعية ولم يكن مسجد رسول الله ﷺ لأجل الأمور العبادية فقط كالصلاة والصيام، بل كانت المسائل السياسية هي الأغلب، فكانت الأمور التي تتعلق بإرسال الرجال إلى الحرب وتعبئة الناس إنما تبدأ من المسجد في أي وقت يحتاجون فيه لذلك^(٢).

إلا أن اللافت للنظر في هذا العصر هو أن أهم ما يميز المسلمين هو اختلافهم وتفرقهم، وانعدام الوحدة الداخلية بينهم، على الرغم من وجود وسيلة وركن هام يجمعهم في مكان واحد إلا وهو الحج، فكان ينبغي أن يكون الحج بمؤتمره السنوي العالمي وسيلة قوية ودافعاً هاماً لاتحاد المسلمين، بحيث تذاب كل الخلافات التي بينهم، وسبب ذلك كله هو أن الحج أصبح اليوم تجمُعاً تقليدياً فقط، بدلاً من أن يكون مؤتمراً حياً لحملة رسالة عظيمة، بحيث تتطلب الوحدة أن يوجد بين الناس هدف مشترك يركز أنظارهم وتوجهاتهم نحو الهدف الأعلى، فتوجهات الناس اليوم تنتشتت في قضايا تافهة، عندما يختفي الهدف الأعلى عن الأنظار، ويُفرغ الحج من محتواه، وتتطاول الأيدي الخبيثة لتحجيم الدور العظيم لهذه الفريضة واقتصارها على البُعد العبادي الشكلي من دون البُعد السياسي لها.

(١) ظ: محمد مهدي الآصفي، كيف نحافظ على مكاسب الحج؟، ص ٩٦، محمد محمود صلاح،

النفحات الإلهية في المناسك البهية، مكتبة مدبولي، القاهرة، (دت)، ص ٤٥.

(٢) أبعاد الحج في كلام الإمام الخميني، ص ٥.

يقول السيد روح الله الخميني: (إن إحدى أكبر فلسفات الحج هي البُعد السياسي الذي تسعى أيادي الجناة لاقتلعه واجتثائه من كافة جوانبه وهم يعملون على ذلك، وللأسف إن دعايات وتبليغات هؤلاء قد أثرت على المسلمين، حيث أصبح الكثيرون من المسلمين يعتبرون أن السفر إلى الحج عبارة عن عبادة جافة وصعبة وخالية من أي تفكير بمصالح المسلمين، إن الحج منذ ذلك اليوم الذي جُعل فيه، لم يقل بعده السياسي أهمية عن بعده العبادي أبداً، وإنّ البُعد السياسي بنفسه عبادة، إضافة لكونه سياسة^(١)).

وإذا كان الأمر كذلك فهم لن يتحدوا فيما بينهم مهما عُقدت المؤتمرات الكبرى، ما لم يوحّدوا هدفهم نحو الدعوة إلى الله سبحانه، وهذا هو الهدف الأعلى للأمة الإسلامية، عندئذٍ سيصبح مؤتمر الحج وسيلة لتحقيق الوحدة العالميّة بين كافة المسلمين في جميع أنحاء الأرض، مستلهمين هذا البُعد من أرض الأنبياء (عليهم السلام) ومشروعهم السياسي تحت لواء كلمة التوحيد و(إثبات الحاكميّة الإلهية في الحياة ونفي لكل معاني الطاغوت والتجبر، ومن هنا أعلن القرآن الكريم: أن كلّ الأنبياء (عليهم السلام) طالبوا أمهم بأمرين: (عبادة الله، واجتناب الطاغوت)، فقال ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾^(٢)(٣).

يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: (فأساس دعوة جميع الأنبياء واللبنة الأولى لتحركهم هي الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الطاغوت، وذلك لأن أسس التوحيد إذا لم

(١) أبعاد الحج في كلام الإمام الخميني، ص ٢٤، ظ: محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، ط ١٠، ١٩٨٠، ص ١٣٦.

(٢) سورة النحل، ٣٦.

(٣) جوادي آملي، الحج وتحقيق هدف الأنبياء (عليهم السلام)، ص ١٧٦.

تحكم ولم يطرد الطواغيت من بين المجتمعات البشرية فلا يمكن إجراء أي برنامج إصلاحية (١).

ولا غرو فان الإسلام هو الامتداد الطبيعي للأديان السماوية الحقّة، وان حركة الأنبياء (عليهم السلام) مشروع إصلاحية ودعوة إلى البناء العالمي، والحج معلّم واضح لتلبية هذه الدعوة العالميّة، وبالتالي سيصبح الحج هو المركز الأساس للدعوة الإسلامية، لذلك ينبغي تسخير الحج كمركز للتخطيط العالمي للدعوة الإسلامية، وتحقيق الوحدة السياسية على أساس وحدة الهدف والقول والعمل في فريضة الحج.

خامساً : البعد الاجتماعي: في موسم الحج تُصقل الخبرات الاجتماعية عند المسلمين، ويساعد على ذلك هذا التوحد المنتظم في المكان والزمان والشروط، فيتعلم المسلمون الوافدون من أنحاء الأرض العادات والتقاليد الاجتماعية التي تؤدي حتماً إلى تقارب وجهات النظر الفردية والجماعية، وعندما نستعرض آيات الحج في القرآن الكريم منذ أن رفع الخليل إبراهيم (عليه السلام) القواعد من البيت، نجد اهتماماً كبيراً بحضور الناس في هذا البيت وفي هذا الموسم ، وأبلغ ما في ذلك تعبير القرآن عن بيت الله تعالى بأنه بيت الناس: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ (٢)، فأول خصيصة ذكرها لهذا البيت هي الشمول إذ (وضعه الله للناس ولم يجعله لفئة دون فئة، لأنه وضع لعبادة الله التي لا يختص بها أحد، فلا معنى لاختصاصه بأحد معين، وقد نستوحي منه ان لا تشير المساجد لتكون لعائلة معينة أو لجماعة معينة، بحيث تُمنع منها بقيّة

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٣٥/٨.

(٢) سورة آل عمران، ٩٦.

العائلات أو الجماعات؛ لان المسجد لم يوضع ليتحدد، بل ليكون شاملاً لكل الناس تبعاً لشمولية دوره في أن يكون محلاً لعبادة الله رب العالمين (١).

وفي دعاء إبراهيم (عليه السلام) نجد أنه (عليه السلام) عندما أودع أهله وذريته بهذا الوادي القاحل غير ذي زرع، دعا الله تعالى أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٢) ، فنلاحظ رقة التعبير في (تصور القلوب رفاة مجنحة، وهي تهوى إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب، إنه تعبير ندي يندّي الجذب برقة القلوب ...) (٣).

وبالتالي يتحقق البعد الاجتماعي لهذا التجمع الأكبر للناس فيكون (الحج وسيلة لتعاون الشعوب الإسلامية واتصالها ببعضها، فالمسلمون على تباعد أقطارهم، وتناهي ديارهم وتشنتهم في جميع أنحاء الأرض، هياً الله - تعالى - لهم مؤتمراً دينياً عاماً يجتمعون فيه، فيقع بينهم أولاً التعارف الذي دعا إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٤)، ثم بعد ذلك التعارف يقع التحدث عن حالة كل شعب من شعوب الإسلام، والبحث في تحسينها، والنهوض بها أعلى مراتب الكمال، وتبسط آمال كل

(١) محمد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن، ١٦٢/٦.

(٢) سورة إبراهيم، ٣٧.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢١١٠/٤.

(٤) سورة الحجرات، ١٣.

شعب وآلامه، وتوضع البرامج لتحقيقها، ويكون كل شعب مهيباً لإعانة بقية الشعوب بما في طوقه وبما يقدر عليه^(١).

وفي البناء الاجتماعي للحج يُبنى البُعد النفسي من خلاله أيضاً، إذ إن الإنسان غير قادر أن يتجاوز الأنا وأن يتحرر من الهوى والشهوات والرغبات عن طريق الاعتزال عن الناس من غير الدخول في الحياة الاجتماعية المتمثلة صورتها في الأئدة المجتمعة في موسم الحج.

يقول حسين علي المصطفى: (إن حركة الإنسان إلى الله حركة شاقة عسيرة وصعبة، ولا يستطيع الإنسان أن يطوي هذا الطريق وحده، فإذا انصهر في وسط الأمة هان عليه السير، واستطاع أن يطوي معهم هذا الطريق بكفاءة)^(٢).

ومما يلفت النظر في الحج المساواة، حيث نرى فيه أعلى صورة وأتمها، فالجميع قد أطرحوا الملابس والأزياء المزخرفة، (ولبسوا جميعاً ذلك اللباس البسيط الذي هو أشبه ما يكون بأكفان الموتى، يلبسه الملك والأمير، كما يلبسه المسكين والفقير)^(٣)، ولا تقف المساواة عند هذا الحد، بل تتعداه إلى جميع مناسك الحج.

والحج إجمالاً كله دروس عملية في المساواة، ومن هذه الدروس ما وجهه النبي الخاتم(ﷺ) إلى أمته في خطبته الجامعة المانعة، يوم أن خطب الناس في موسم الحج في حجة البلاغ - الوداع -، فقال(ﷺ): (يا أيها الناس، إن ريكم واحد وإن

(١) د. محمد بن موسى الشريف، المقالات النفسية في الحج، دار الأندلس، جدة، ٢٠٠٠ م، ص ٤٢٠.

(٢) فلسفة العبادات، ص ٤٢١.

(٣) د. يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، ص ٢٨٩، ط: د. أحمد محمد برج، أثر العبادات في وحدة المجتمع الإسلامي، ص ٢٥٥.

أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله (ﷺ) ((^(١))).

وبالجملة فالحج من أوله إلى آخره رحله بنائية للإنسان لها آثار عظيمة على النفس من حيث تصفيتها من الاكدار، وتزويدها بالتقوى، وبُكل ما هو نافع، قال

تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

واللافت للنظر هنا أيضاً تكثير المنافع في الآية، وهذا التكرير لجليل مقامها وكبر خطرها، وهذه المنافع مما لا نلاحظها في عبادة غير عبادة الحج، يقول الرازي: (إنما أنكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات)^(٣).

فالمراد إذن من هذه المنافع الدنيوية والأخروية معاً، وذلك لإطلاق لفظ منافع من غير تقييد، والمنافع الدنيوية (هي التي تتقدم بها حياة الإنسان الاجتماعية ويصفوا بها العيش وترفع بها الحوائج المتنوعة وتكمل بها النواقص المختلفة من أنواع التجارة والسياسة والولاية والتدبير... ومنافع أخروية وهي وجوه التقرب إلى الله تعالى بما يمثل

(١) احمد، مسند احمد، ٤١١/٥، المتقي الهندي، كنز العمال، ٩٣/٣، ظ: المجلسي، بحار الأنوار، ٣/٣٥٠.

(٢) سورة الحج، ٢٧ - ٢٨.

(٣) مفاتيح الغيب، ٢٣ / ٢٦.

عبودية الإنسان من قول وفعل، وعمل الحج بما له من المناسك يتضمن أنواع العبادات من التوجه إلى الله... (١).

وما تقدم في حنايا الكتاب جزء من المنافع البنائية للإنسان، وهذا البناء مشروط بالإخلاص والالتزام لا في موسم الحج فحسب، بل المعروف أن الآثار تُجنى بعد موسم الحج وأداء العبادة.

يقول السيد محمد حسين فضل الله (رحمه الله): (وفي هذه الأجواء الروحية الواعية المتحركة في خط المسؤولية يعود الإنسان الفرد من رحلة الحج إنساناً جديداً في أهدافه ومنطلقاته وخطواته، من خلال ما عاشه من دروس وعبر ومواقف وتأملات، حيث الطهر والخير والمحبة والحنان، ولعل هذا هو ما يُريد الإسلام أن يوحيه للحاج فيما ورد في الأحاديث التي توحى بأن الإنسان يخرج من الحج كيوم ولدته أمه) (٢).

وهكذا يكون البناء الحقيقي لفريضة الحج للإنسان الواعي لسر الوجود، فيستلهم تلكم المنافع التي وعد الرحمن سبحانه ضيوفه الذين يتطهرون من جميع أشكال الفكر الطاغوتي، أما من (كان ملوثاً بالفكر الباطل أو العمل الطالح لن يكون ضيفاً للبيت الطاهر، فليس الساعي وراء الامتيازات والمقامات والمناصب ضيفاً للبيت المساواة والمساواة، وليس عبد الهوى أو عبد المستكبرين والملحدين ضيفاً للبيت العتيق الحرّ، بيت الحرية والأحرار) (٣).

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٣١٦/١٤ - ٣١٧، ظ: الآلوسي، روح المعاني، ١٨٩/١٧، محمد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن، ٥٥/١٦.

(٢) الحج عبادة وحركة سياسة، ص ١٤٥، ظ: د. أحمد محمد برج، أثر العبادات في وحدة المجتمع الإسلامي، ص ٢٥٣.

(٣) جوادى آملي، مناسك الحج : سرّ العبادة، ص ١٦.

خلاصة الأمر:

إن فريضة الحج تُحيي في نفس الإنسان مشاعر كثيرة، فهي تُحيي فيه مشاعر العطف على المسلمين والانتصار لمأساتهم، ومشاعر الاقتداء بالنبي محمد (ﷺ) وآله الطاهرين (عليه السلام)، وحياة الاضطهاد من أجل العقيدة التي عاناها، ومشاعر الولاء لله ولرسوله والمؤمنين، ومشاعر التوجه الخالص لله، ومشاعر التجرد عن الدنيا، والإقبال على الآخرة، ومشاعر العزم على القرب الإلهي وفتح صفحة جديدة مع الله سبحانه مرتكزة على الحب.

ولهذا (فإن مكة مهوى كل عاشق عشق القرب من الله وعجز، وفيها تنتزل أصداء الوحي المحمدي في صورتها البكر، وإليها تلتهب النفوس العطشى لتروى من معين كعبتها الغراء، وفي أصيلها تغرد الملائكة ترانيم عبادتها، فتتهاوى تحت شموخها المشارق والمغرب في خشوع وحب)^(١).

إذن تحقيق كل هذه المعاني في أنفسنا وحده الكفيل بتحققها في واقعنا والنهوض من جديد، إذ لم توضع شعائر الحج لذاتها، ولكن لما فيها من العبر والذكريات والدروس والايحاءات العظيمة الرافدة في بناء الإنسان القرآني.

وهكذا هي مهمة البناء العبادي للإنسان تعتبر فريضة الحج ركناً أصيلاً في المنهاج الإلهي الذي شرعه الله تعالى على غاية العلم والحكمة، وجعله بناءً محكماً

(١) حسين علي المصطفى، فلسفة العبادات، ص ٣٥٣، لم يوفق الباحث لأداء مناسك الحج حتى يستشعر إقامتها، فما استشفه كان من لقاءات شخصية مع من وفق لأداء هذه الفريضة، ومما التمسه - الباحث - من عمق النص القرآني المعبر.

(١٧٢) الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

يشد بعضه بعضاً، ويؤدي كل فرض عبادي فيه عمله الخاص أو العام على غاية التفرد والتفوق والامتياز، على مستوى الحياة الواسعة من غير فصل بين العبادة والحياة.



الخاتمة

العبادة شعور مكتمل العناصر، يبدأ بالمعرفة العقلية، ثم بالانفعال الوجداني، ثم بالنزوع السلوكي الذي هو الغاية الكبرى التي من اجلها كانت الفرائض العبادية وجوهر التشريع العبادي كما اتضح من نصوص القرآن الكريم التربوية.

واتضح ان تحجيم دور العبادة واختصارها على طقوس خاوية ومراسيم شكلية بعيدة عن نشاطات الحياة المختلفة في ثنائية (تشمل العبادة وتعطل دورها التربوي البناء في تطوير دوافع الإنسان وجعلها موضوعية، وتمكينه من أن يتجاوز ذاته ومصالحه الضيقة في مختلف مجالات العمل، والله ﷻ لم يركز على أن يُعبد من أجل تكريس ذاته وهو الغني عن عبادته، لكي يكتفي منهم بعبادة من هذا القبيل، ولم ينصب نفسه هدفاً وغاية للمسيرة الإنسانية لكي يطأطئ الإنسان رأسه بين يديه في مجال عبادته وكفى، وإنما أراد بهذه العبادة أن يبني الإنسان الصالح القادر على أن يتجاوز ذاته ويساهم في المسيرة بدور أكبر، ولا يتم التحقيق الأمثل لذلك إلا إذا امتدت روح العبادة تدريجاً إلى نشاطات الحياة الأخرى)^(١) وتوزعت لأجل هذا العبادات على مجالات الحياة المختلفة في شمولية ملحوظة.

(١) محمد باقر الصدر، نظرة عامة في العبادات، ص ٥٨، ظ: محمد تقي مصباح اليزدي، العودة إلى الذات وبنائها من جديد، ص ٨٩. وهذا بخلاف ما دلل عليه الدكتور كامل حمود بالخطأ الشائع عند الناس، ومفاده أن العبادات هي مظهر الصلة بالله تعالى فقط. ظ: صورة الإنسان، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٦٢.

(١٧٤) الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

بِسْمِ اللَّهِ

(١٧٦) الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني

قائمة المصادر

خير ما نبدأ به القرآن الكريم

١. إبراهيم الطحاوي (الدكتور)، الاقتصاد الإسلامي مذهباً ونظاماً، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٤.
٢. ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) مجد الدين محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي وآخر، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، (دت).
٣. ابن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، العبودية، مطبعة المدينة، مصر، ١٩٥٨م.
٤. أبو الحسن الندوي، وأذن في الناس بالحج، الهند، المجمع الإسلامي، ط٣، ١٩٨٠م.
٥. أحمد العسال (الدكتور)، النظام الاقتصادي في الإسلام، مبادئه، وأهدافه، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م.
٦. أحمد برج (الدكتور)، أثر العبادات في وحدة المجتمع الإسلامي، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، ٢٠٠٤م.
٧. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، دار صادر، بيروت، (دت).
٨. أحمد صبحي منصور (الدكتور)، الصلاة بين القرآن الكريم والمسلمين، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٨م.
٩. أحمد عبد الجواد الدومي، الإسلام منهاج وسلوك، المكتبة العسكرية، بيروت.
١٠. أحمد غنيم، فلسفة الصيام، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
١١. احمد محمد فارس (الدكتور)، النماذج الإنسانية في القرآن الكريم، دار الفكر العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م.
١٢. الألويسي (ت ١٢٧٠هـ) أبو الفضل شهاب الدين البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٣. الأنصاري، مرتضى محمد أمين، كتاب الصلاة، تحقيق: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، الناشر: المؤتمر العالمي بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاد الشيخ الأنصاري، مطبعة باقري، قم، ١٤٢٠هـ.
١٤. باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام - دراسة مقارنة-، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، (دت).
١٥. البغوي ابي محمد الفراء(ت٥١٠هـ)، معالم التنزيل في التفسير والتأويل، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢م.
١٦. الترمذي(ت٢٧٩هـ) سنن الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.
١٧. جورج شهلا وآخرون، الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٨م.
١٨. جوادى أملي، مناسك الحج : سر العبادة، مجلة ميقات الحج، طهران، السنة ١٥، رجب، ١٤٢٩هـ، العدد ٣٠.
١٩. حسن القبانجي، شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين (عليه السلام)، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ٢٠٠٢م.
٢٠. حسين على المصطفى، فلسفة العبادة، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٦م.
٢١. حسين نجيب محمد، جمال السالكين العالم الرياني السيد عبد الأعلى السبزواري، طبع النجف الاشرف،(دت).
٢٢. العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ)، كتاب الألفين، مكتبة الألفين، الكويت، ١٩٨٥م.
٢٣. خالد عبد الرحمن العك، تربية الأبناء والبنات في ضوء القرآن والسنة، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ٢٠٠١م.
٢٤. الدامغاني: أبي عبد الله، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، تحقيق: عربي عبد الحميد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٣م.

٢٥. الرازي(ت٦٠٤هـ) فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م.
٢٦. روح الله الخميني، الأربعون حديثاً. الأربعون حديثاً، تعريب: محمد الغروي، دار التعارف للمطبوعات، ط٨، ٢٠١٠م
٢٧. الزمخشري(ت٥٣٨هـ) ، الكشاف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.
٢٨. سعدي أبو حبيب(الدكتور)، القاموس الفقهي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م، ط٢.
٢٩. سعيد بن وهف القحطاني، منزلة الصلاة في الإسلام ، دار الخنساء ، بغداد ، (د.ت).
٣٠. سهام مهدي جبار، الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية،المكتبة العصرية، بيروت١٩٩٧م.
٣١. سيد سابق، فقه السنة، دار الكتاب العربي ، بيروت.
٣٢. سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار إحياء التراث العربي، القاهرة ، ط.
٣٣. -، في ظلال القرآن، دار الشروق ، بيروت ، ط٣٤.
٣٤. الصدوق(ت٣٨١هـ)، من لا يحضره الفقيه ، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم.
٣٥. الطبري ابن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
٣٦. الطوسي (ت٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير أعلامي، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠م.
٣٧. عادل بن علي الشدي (الدكتور)، مقاصد الحج في القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، السعودية، ذو العقدة، ١٤٢٩هـ، العدد ٤٤.
٣٨. ابن عاشور ، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، (د.ت).
٣٩. عبد الحسين دستغيب، صلاة الخاشعين ، دار المعارف ، بيروت، ٢٠٠٥م.
٤٠. عبد الرحمن الجزيري وآخرون، الفقه على المذاهب الأربعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت. دط.

٤١. عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، الصيام ورمضان في السنة والقرآن، دار التعليم، دمشق، ١٤٠٧هـ.
٤٢. عبد اللطيف مشتهري، مدرسة الصوم، دار الاعتصام، القاهرة، ط ٥، ١٤٠٤هـ.
٤٣. عفيف طبارة، روح الصلاة في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.
٤٤. علي الحسيني السيستاني(المرجع الديني المعاصر)، منهاج الصالحين، العبادات، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٦.
٤٥. علي السجاد (الإمام)ع، الصحيفة السجادية، تحقيق: محمد باقر الموحّد الابطحي، مؤسسة الإمام المهدي(عليه السلام)، قم، ١٤١١هـ.
٤٦. فهد عبد الرحمن الرومي(الدكتور)، الصلاة في القرآن الكريم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٦، ١٤١٤هـ.
٤٧. فؤاد عبد الله العمر، نحو تطبيق معاصر لفريضة الزكاة، ذات السلاسل، للطبعة والنشر، الكويت، ١٩٨٤م.
٤٨. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب(ت ٨١٧ هـ)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت،.
٤٩. الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية، بيروت (د.ت).
٥٠. أبو القاسم الخوئي(ت ١٤١٣هـ) بن علي أكبر الموسوي(عليه السلام)، كتاب الزكاة، المطبعة العلمية، قم، ١٤١٣هـ.
٥١. ابن قيم الجوزية(ت ٧٥١هـ) محمد بن أبي بكر الزرعي، الطب النبوي، دار بيروت، (د.ت).
٥٢. الكاساني علاء الدين(ت ١٣٢٩هـ)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع،(د.ت)، طبع شركة المطبوعات العلمية، القاهرة.م.
٥٣. كامل حمود(الدكتور)، صورة الإنسان، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٣م.
٥٤. ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) أبي الفداء عماد الدين، تفسير القرآن العظيم، دار صبح، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٧م.

٥٥. الكليني محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ)، الكافي، تحقيق: علي اكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٣هـ ش.
٥٦. لجنة التأليف، الصلاة عبادة وتربية، مؤسسة البلاغ، مطبعة الصدر، ط ٤، ٢٠٠٥م.
٥٧. -، دليل الحياة في القرآن الكريم، مؤسسة البلاغ، ٢٠١١م
٥٨. ماذا يعني انتمائي للإسلام، مؤسسة الرسالة، القاهرة، ط ٤، ٢٠٠٠م.
٥٩. المجلسي (ت ١١١١هـ) محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تحقيق: محمد تقي اليزدي، محمد باقر البهبودي، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، ١٩٨٣م.
٦٠. مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية، مصر، ١٩٨٩.
٦١. محسن الاميني، الشيعة بين الحقائق والأوهام، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط ٣، ١٩٧٧م.
٦٢. محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، القاهرة.
٦٣. محمد أحمد الأطرش، حقيقة التقوى وطرق الوصول إليها، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
٦٤. محمد الخضري بك، تاريخ التشريع الإسلامي، دار القلم، بيروت، ١٩٨٣م.
٦٥. محمد الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، مطبعة ألبابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٥٨م.
٦٦. محمد باقر الحكيم (رحمته الله)، دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، النجف الأشرف، ط ٥، ٢٠٠٧م.
٦٧. محمد باقر الصدر (رحمته الله)، اقتصادنا، تحقيق: مكتب الإعلام الإسلامي، مؤسسة بقية الله، النجف الأشرف، ٢٠٠٣م.
٦٨. -، نظرة عامة في العبادات، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط ٣، ١٩٨١م.
٦٩. محمد بن موسى الشريف (الدكتور)، المقالات النفسية في الحج، دار الأندلس، جدة، ٢٠٠٠م.

٧٠. محمد تقى المدرسي، من هدى القرآن، دار القارئ، بيروت، ٢٠٠٨م، ط٢.
٧١. محمد تقى فلسفي، الطفل بين الوراثة والتربية، تعريب: فاضل الحسيني الميلاني، دار سبط النبي، قم، ٢٠٠٥م.
٧٢. محمد تقى مصباح اليزدي، العودة إلى الذات وبناءها من جديد، ترجمة: محمد علي تسخيري، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، المعاونة الثقافية، إيران، ٢٠٠٩م.
٧٣. محمد جعفر شمس الدين، الصلاة الإسلامية، دار التعارف، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
٧٤. محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥م.
٧٥. محمد جواد مغنية، الفقه على المذاهب الخمسة، دار الغدير، قم المقدسة، ٢٠٠٩م.
٧٦. محمد حسين الصغير (الدكتور)، محاضرات في تفسير آيات الأحكام، طبع الكتاب على نفقة جامعة الكوفة، ط٤، ٢٠٠٧م.
٧٧. محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتاب العربي، بغداد، ٢٠٠٩م.
٧٨. محمد حسين فضل الله، الحج عبادة وحركة وسياسة، مجلة رسالة التقريب، عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، العدد ٧٦، ٢٠٠٩م.
٧٩. محمد عبد القادر أبو فارس، إنفاق الزكاة في المصالح العامة، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣م.
٨٠. محمد عبده، شرح نهج البلاغة، دار الذخائر، قم، ١٤١٢هـ.
٨١. محمد علي التسخيري، الحج وتحقيق هدف الأنبياء (عليهم السلام)، مجلة رسالة التقريب، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، ذوالعقدة، ٢٠٠٩م، العدد ٧٦.
٨٢. محمد فاروق النبهان (الدكتور)، المدخل للتشريع الإسلامي، دار القلم، بيروت، ١٩٧٧م.
٨٣. محمد قطب: مفاهيم ينبغي أن تصحح، دار الشروق، القاهرة، ط٨.
٨٤. محمد كاظم حسين الفتلاوي (الدكتور)، العلم في المفهوم القرآني، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية/ جامعة القادسية، المجلد ٩، ٢٠١٠م، العددان ٣-٤.

٨٥. -، المنظور القرآني في بناء الإنسان - دراسة تفسيرية -، أطروحة دكتوراه (حاصلة على تقدير امتياز) ، كلية الفقه ، جامعة الكوفة، ٢٠١٢م.
٨٦. محمد محمود صلاح، النفحات الإلهية في المناسك البهية، مكتبة مدبولي، القاهرة، (دت).
٨٧. محمد مهدي الأصفي، النظام المالي وتداول الثروة في الإسلام، المكتبة الإسلامية الكبرى، بيروت، ط٣، ١٩٧٣م.
٨٨. -، في رحاب القرآن ، المشرق للثقافة والنشر، النجف الأشرف ، ٢٠٠٨م.
٨٩. -، كيف نحافظ على مكاسب الحج؟، مجلة ميقات الحج، طهران، السنة ١٦، ذو الحجة، ١٤٣٠هـ، العدد ٣٢.
٩٠. محمد نبيل، العبادات في الإسلام وأثرها في تضامن المسلمين، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ١٤٠٣هـ.
٩١. محمد نور سويد، منهج التربية النبوية للطفل، دار ابن كثير، دمشق، ط٢، ١٩٩٩م.
٩٢. محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، ط١٠، ١٩٨٠.
٩٣. محي الدين مستو، عبادات الإسلام فقهها وأسرارها، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤١١هـ.
٩٤. مرتضى مطهري، التربية والتعليم في الإسلام، مؤسسة الثقليين، سوريا، ط٣ ، ٢٠٠٣م.
٩٥. مصطفى السباعي، أحكام الصيام وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.
٩٦. المفيد (ت ٤١٣هـ)، المقنعة ، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي ، قم ، ط٢ ، ١٤١٠هـ.
٩٧. الميرزا النوري (ت ١٣٢٠هـ)، مستدرك الوسائل، مؤسسة آل البيت (عليه) لإحياء التراث، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.
٩٨. ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ط٢، ٢٠٠٥م.
٩٩. النراقي: محمد مهدي(ت ١٣٠٩هـ)، جامع السعادات، حققه: السيد محمد كلانتر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٤.

١٠٠. النسائي (ت ٣٠٣هـ)، سنن النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٠١. نظام الدين عبد الحميد، العبادة وآثارها النفسية، مكتبة القدس، بغداد.
١٠٢. ابن هشام الحميري (ت ٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: محمد محي الدين حميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، ١٩٦٣.
١٠٣. وضحه السويدي (الدكتور)، تنمية القيم الخاصة بمادة التربية الإسلامية لدى تلميذات المرحلة الإعدادية بدولة قطر (أصله أطروحة دكتوراه)، دار الثقافة، دولة قطر، ١٩٨٩م.
١٠٤. اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) أحمد بن إسحاق بن وهب، تاريخ اليعقوبي، دار الزهراء، قم، ١٤٢٩هـ.
١٠٥. يوسف القرضاوي (الدكتور)، العبادة في الإسلام، مؤسسة بيروت، لبنان، ط ٣، ١٩٧٣م.
١٠٦. ـ، فقه الزكاة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٧، ٢٠٠٢م.
١٠٧. ـ، الحج العبادة الظاهرة والباطنة، مجلة رسالة التقريب، تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، العدد ٧٦، ٢٠٠٩م.



المؤلف في سطور

الاسم: محمد كاظم حسين الفتلاوي

* حاصل على اللقب العلمي: (أستاذ) Professor في ١٧/١٢/٢٠٢٠ م.

* أستاذ في التفسير وعلوم القرآن الكريم في كلية التربية المختلطة/ جامعة الكوفة.

شغل المهام الآتية:

* رئيس قسم علوم القرآن الكريم / كلية الفقه الجامعة (اعارة).

* مسؤول وحدة الارشاد النفسي والتوجيه التربوي / كلية التربية.

* أمين مجلس كلية التربية.

١. خريج قسم التربية الإسلامية في معهد اعداد المعلمين / الديوانية ١٩٩٧ م.
(العشرة الأوائل).

٢. حاصل على شهادة البكالوريوس في علوم القرآن والتربية الإسلامية/ جامعة بغداد / كلية التربية (ابن رشد)/ ٢٠٠١ م.

٣. حاصل على شهادة الماجستير في الشريعة والعلوم الإسلامية / كلية الفقه / جامعة الكوفة عن رسالته الموسومة بـ(حرية العقيدة والرأي في الفكر الإسلامي) وبتقدير (أمتياز). ٢٠٠٨ م.

٤. حاصل على شهادة الدكتوراه في علوم القرآن الكريم والحديث الشريف / كلية الفقه / جامعة الكوفة / عن أطروحته الموسومة بـ(المنظور القرآني في بناء الإنسان - دراسة تفسيرية) وحاصلة على تقدير (امتياز) ٢٠١٣م.

* محاضر لمادة (الميراث) في كلية القانون / جامعة القادسية لسنتين: ٢٠٠٧ - ٢٠٠٩م.

* محاضر لمادة: (العقائد، الفكر الإسلامي، مناهج المفسرين، مدارس فقهية، حقوق الإنسان) في كلية الدراسات الإنسانية الجامعة (الكفيل) / النجف الاشرف / لأربع سنوات: ٢٠٠٨ - ٢٠١٢م.

* شارك في مؤتمرات علمية عديدة.

* نشر بحوث علمية في مجلات علمية محكمة.

* نشر مقالات ثقافية في مجلات معنية.

* عضو هيئة عامة في جمعية منتدى النشر / النجف الأشرف.

* عضو المنتدى الوطني لأبحاث الفكر والثقافة - جمعية علمية - النجف الأشرف.

* عضو نقابة المعلمين / فرع النجف الأشرف.

* عضو هيئة عامة في جمعية منتدى النشر / النجف الأشرف.

* عضو نقابة الأكاديميين العراقيين.

* عضو جمعية أبي طالب الخيرية / قضاء الشامية / المسؤول الثقافي.

* عضو المركز الإعلامي العراقي المقر العام / الديوانية.

* عضو في اللجان الآتية:

- عضو لجنة تأليف مناهج التربية الإسلامية في وزارة التربية.
 - عضو لجنة تأليف مناهج التربية الإسلامية في وزارة الداخلية.
 - عضو لجنة تأليف المناهج الإسلامية في ديوان الوقف الشيعي.
 - عضو لجنة الارشاد التربوي المركزية في ديوان جامعة الكوفة. ٢٠٢٢م.
 - عضو لجنة اثناء المناهج الإسلامية في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
- ٢٠٢٢م.

للتواصل مع المؤلف:

mohamadm323@gmail.com

mohammedk.alfatlawy@uokufa.edu.iq

<http://staff.uokufa.edu.iq/profile.html?mohammedk.alfatlawy>

كتب صدرت للمؤلف

- ١- كتاب: الإدارة المدرسية في الفكر التربوي الإسلامي، نشر: ديوان الوقف الشيعي / بغداد، رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٠٣١) لسنة ٢٠١٠م.
- ٢- كتاب: الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني - دراسة قرآنية -، رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١١٣٤) لسنة ٢٠١٤م.
- ٣- كتاب: الإعجاز في القرآن الكريم - دراسة في التفسير العلمي للآيات الكونية -، رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٥٤٤) لسنة ٢٠١٥م.
- ٤- كتاب: الفرق الإسلامية الكبرى - الإمامية، المعتزل، الاشاعرة - دراسة مدخلية مقارنة في النشأة والأصول. رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٣٦) لسنة ٢٠١٦م.
- ٥- (كتيب): اخلاقيات مهنة الشرطة في الفكر الإسلامي. نشر كلية التربية / جامعة الكوفة ٢٠١٦م. رقم الإيداع: ٧٨٠ لسنة ٢٠١٦م.
- ٦- كتاب: مناهج المفسرين - دراسة في النظرية والتطبيق-، نشر دار حدود النجف الاشرف ٢٠١٧م. رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٦٢٨) لسنة ٢٠١٧م. طبعة ثانية: ٢٠٢٠م
- ٧- كتاب: المجتمع الإسلامي المعاصر -دراسة في ضوء الكتاب والسنة-، دار حدود للنشر، بيروت، ٢٠١٨م الطبعة الثانية: ٢٠٢١م، رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٧٨) لسنة ٢٠١٨م.
- ٨- كتاب: أصول التفسير -دراسة في المبادئ العامة والضوابط والقواعد-، دار

حدود للنشر والتوزيع، ٢٠١٩م. ورقم الايداع في دار الكتب ببغداد (٣٩٠٧) لسنة ٢٠١٩م.

٩- كتاب: أخلاقيات مهنة التدريس الجامعي، تقديم: أ.د. بشرى اسماعيل أرنوط (مصر/ جامعة الزقازيق). الناشر: دار حدود، بيروت، ٢٠٢٠م. رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٢٣) لسنة ٢٠٢٠م.

١٠- (كتيب): ميثاق أخلاقيات مهنة التدريس الجامعي، دار حدود، بيروت، ٢٠٢٠م. رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٢٤) لسنة ٢٠٢٠م.

١١- كتاب: التفسير التربوي للقرآن الكريم -أضواء تربوية أخلاقية من وحي الآية الثانية عشرة من سورة الحجرات-، دار حدود، بيروت، ٢٠٢١م، رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٨٥١) لسنة ٢٠٢١م.

١٢- كتاب: أساليب القرآن الكريم - دراسة في النظرية والتطبيق -، دار حدود، بيروت، ٢٠٢٢م. رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٤٤) لسنة ٢٠٢٢م.

١٣- كتاب: علوم القرآن التاريخية (تاريخ القرآن)، نشر: مؤسسة الصادق الثقافية، بابل، ٢٠٢٣م. رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٥٠) لسنة ٢٠٢٢م.

١٤- كتاب: الأثر القرآني في فكر السيد السيستاني - دراسة تربوية في النصائح الشخصية للشباب المؤمن -، ج١، نشر: أكاديمية وارث للتنمية البشرية / العتبة الحسينية المقدسة، ٢٠٢٣م، رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٣٩١) لسنة ٢٠٢٣م.